حامـوت

حامـوت

(رواية)

وفاء عبد الرزاق

Almothaqaf Arabic Association

حامـوت

وفاء عبد الرزاق

الطبعة الأولى 2014

القياس: 14.5 x 21.5
لوحة الغلاف: د. مطيع الجميلي
عدد الصفحات: 141
ISBN 978-9953-574-96-7

من إصدارات

مؤسسة المثقف العربي
سيدني/أستراليا
www.almothaqaf.com
almothaqaf@almothaqaf.com

نشر وتوزيع

شركـة العـارف للأعمـال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

إهـداء

؟ . . .

نعم ؟

أهدي عملي هذا إليها، تلك العلامة التي لم تصل لذاتها كي أرجو منها الأخذ بيدي والوصول إلى الحقيقة.

مازلت أتساءل أيتها الملتوية على نفسك:

- لو عدَّلتِ من ذاتك واستقمتِ،هل سنولَدُ من انبثاق النار، أم من التراب؟

ها أنا ذا أرسمكِ مرة أخرى وأقول ما الذي سيحصل؟.

تقديم

حاموت. . .

. . . . حاموت.. مدينة الظلام والكابوس،كأنها غيمة سوداءتحاصر سماء أبنائها وتصهرهم واحداً تلو الآخر، ما هي إلا صدى أسلحة، شكوى مؤلمة.. صوت العتمة الخافت والحزن الوقور.

تتفنن في رنين الخوف لتُبقى الأحفاد بلا هوية أو سلام، تصب عفونة الأيام عليهم فتلقيهم للغرق.. يتوارثونه مهابة للمياه وتلبية لدعوتها.

أن تُصبح المدينة بئراً تستقبل الخطوات الوئيدة، كأنما ورق يتساقط في انزلاق الظلمة، لتستقبلهم الأشباح. . . لهوَ عُري الأمكنة وصلب الروح.

شيء ضارب في السواد يلاحق الدور والحوائط.

هناك.. تحت ظل السياج البريء، لم يعد ثمة من ينتظر غزالا بريئا، أو يوما ذهبيا،الوقتُ ثملٌ من شكوى العصافير، إذ لا شجر تأوي إليه وتنسِّق أعشاشها.

"حاموت"مجرد دعاء مهجور،أو ناي صامت يحترق بعاطفة جيَّاشة ويلتهب.

وهناك..

مَن عُذبوا بوحشية والتحفوا برعشة الموت، تنزلق الآهات وتبقى العظام شاهدا على جرم الأوسمة العاقر.

هنا أو هناك..

بين الطرقات الوعرة الحجارة،أو المنفى قسرا.

كنتُ ومازلتُ أحوم حول أسئلتي،والجواب ثمل وصريع.

- ما الذي يجعل الرصاص يشتهينا ويتلذذ؟

النحو الذي تُرتكب به أشكال الموت يجعلني أسأل نفسي عن اسم " حاموت" أصلها وأصل تسميتها.. كثيرا ما يقتحمني السؤال، فأتوجه باحثا عن سر الاسم، من أين جاء؟ وما هو جذره.

أيتعين عليَّ قبول الواقع كما هو، حتى يأتي دوري وأسير طائعا خلف الشكل المهيأ لي مسبقا للموت؟ ومن ذا الذي يملك معرفة ذلك؟

لا أرفض لمجرد الرفض فحسب.. بل رغبة مني لمعرفة الشخص الذي يرتهن بقاؤنا جميعا بحضوره.

يتملكني الخوف أحيانا لمشاهدة كارثة من كوارث الطبيعة،فما بين ثانية وأختها يستنشق الموت الأنفاس الأخيرة للغارقين في فيضان لثمة بقعة من " حاموت" لا ينجو من موسم الغرق الجماعي إلا امرأة أو طفل، أو ربما شيخ.. خضوع الجميع لعُرف الأمواج الهائجة، إلا أن السماء تدنو من أحدهم وتشده عاليا فوق كل عات وترميه على الساحل بين أنقاض البيوت الخربة إثر الهياج المائي.

أطلُ كإنسان عادي خاض غمار الحياة وسط سكان "حاموت" . . ولدتُ لأبوين عشقا بعضهما حد أن أصبحا واحدا، وأنجباني في شتاء قارص.

الآن ما عاد يضمني وهج الدلال وأمان الحب، فقدتهما في ثانية واحدة. . . يبدو أن في التحامهما حبا تعاهدا على أن يرقدا معا في هبوطهما الأخير تحت أرض "حاموت".

لست اذكر السبب في غيابهما المفاجئ، لأنني كنت صغيراً لا أتجاوز الرابعة. . حين هبط خلل الحياة فجأة على طفولتي مخضَّبا بالضياع والتيه.

هناك. . في غمار الفزع والفقد، وفي لحظة مروعة، صمتَ قلبي الصغير مصغيا لأحضان خالتي. . حين رجعتْ والتراب عالق في ثوبها من المقبرة. . مضت بي لأرى قبري الجديد فوق أرض "حاموت".

تفقدتهما كثيرا في بداية كل يوم وآخره. . في الوجوه الغريبة والقريبة. حين قادوني إلى المقبرة بعد مضي أربعين يوما. . توسلتُ كل الأموات ليشفقوا عليهما. . وأطلقت بعدها صيحة طفل مُرَّة.

كنتُ أسمعهم يقولون:

- (من التراب إلى التراب).

لم أفهم معنى القول وقتها، وبقي سره يحفر بداخلي حتى تحررتُ بعض الشيء من خوفي وصمت الدار. . أتذكر كلما أخذتني خالتي لزيارة بيتنا. . تشبثت بلعبي، خاصة وقتما أخذ السمسار مفتاح الدار وسلمه للمشتري الجديد.

هذا ما بقي لي من رحاب الوجود واللعب بين الأحضان.

مكثتُ وحيدا هناك. . أتدثرُ بأسئلتي الحائرة، أطوف بين الأشجار والوديان. . بين الجبال والسهول، الأنهار والضفاف، الأزقة الضيقة والشوارع الأنيقة، الدور الخربة والعمارات،الأرض المثقلة بالفاكهة والأرض البور، الأمكنة التي دبت فيها الحياة والميتة..من هناك وهنا لا أرى سوى شبح يظهر فجأة ويغيب بلمح البصر.

(1)

"محمد" . .

هو اسمي في شهادة الميلاد، إنما خالتي كانت تناديني ب "عارف"، لستُ أدري لمَ يحلو لها ذلك؟ وأي عارف لا يعرف أي شيء عن إطلالته الحقيقية على الدنيا. . هل قُدر عليه أن يحيا غريبا ويتيما،أن يأتي ثمة شخص يجهله وينتزعه من حضن أبويه ويحيله إلى كائن مملوء بالتساؤلات؟

تساؤلات لا غير تتوحد في أعماقي. عن ورق الشجر المتساقط. . عن حيوانات وطيور تُصاب بداء يقضي عليها. . تنتهي دورتها ثم تأتي غيرها منحوتة بحياة أخرى.

الصراصير والحشرات والديدان. . راقبتها كيف تعيش وتنهار تحت قدم عابر أو تنحشر بين أغصان أشجار قوية لا يمكنها الإفلات من قبضتها. . أو تموت خنقا.

الأشجار حية. . تموت هي الأخرى بين مناشير الحطابين لتصبح وقودا للتدفئة.

الموت حرقا عقاب على خضرتها، قد كانت ترغب بخضرة دائمة، ومن يرغب بالديمومة لابد أن يُحرق.

أخرى أصبحت قرميدا لسقوف الدور. . أو كراس لزعماء راهنوا أيضا على ديمومتهم بقتل كل من يعارض ملكوتهم متوهمين أن بقاءهم بشنق معارض، أو صلبه حيا حتى تأكل الطيور مخه. . تلك الأطيار أكل أمخاخها مرض (انفلاوزنا الطيور).

في لحظة جليدية التفَّت أحبال المشانق على من راهنوا بالدم على بقائهم الأبدي.

كان موتهم نورا للآخرين، يجلو الطريق أمامهم ليبدأوا مسيرة مختلفة.

الآخرون. . . قد يأتون بثياب متواضعة، بقداسة دينية، بوجوه قاتمة وأقنعة. . بتواضع أو تكبّر. . بوطنية حقيقية وبخداع.

كلهم في أرض "حاموت" مجرد لعب شطرنج بيد شبح كبير يهرب مسرعا كلما حاولت الوصول إليه.

هل يظهر لي لمعرفته بشوقي إلى معرفته. . وبحاجتي إلى الحديث معه ومعرفة سره؟ مَن وراء حضوره وغيابه؟ مَن يقوده إلى غرس سعاره بالمدينة ابتداء من الإنسان فيها إلى الحشرة؟

لستُ بالقديس كي يرضى عني، ويصرَّ على التلويح إلي بشكل شبح..هذا إذا كان هو بالأصل قديسا ويقترب ممن تقدَّست روحه وتحصَّن عمله.

لو كان قديساً فعلا لماذا ترك بصمة العتمة على التوابيت وترك قلوب الأمهات والآباء تجرع سم الفراق ولا تهجع إلا حين يحضر ثانية ويريحها من معاناة سامة؟ إذاً مَن هو؟

ولماذا يترك بصمته، هل للأشباح بصمات؟

رأيته يمرق مسرعا ليضع إبهامه على شاهدة قبر جديد، لم يره أحد، لكن لماذا يظهر لي مخلفا أسئلة تتغرغر في حنجرتي؟

أجوب الآفاق ليلا ونهارا متسائلا:

. . مَن أنت؟

ولماذا اخترت العامل العائد من عمله في القاطرة، الذي لم يتعرف عليه غير الصفير والانتظار في الوجوه.. عاد مبللا بالمطر تلك الليلة، محملا بتعب يومه حاملا كيسا صغيرا خبأ فيه هدية لعيد ميلاد طفلته الوحيدة، التي جاءت بعد انتظار لعشر سنوات وأدعية ونذور.

كان مرتجفا بردا وظلاما، لكن ما أن عصفت ريحكَ بين أضلعه وبين أول خطوة له لعتبة الدار، حتى وقفتَ حائلا بينه وبين فرحته..هل أنت من اعترض الفرح؟

إذا لم تكن أنت فعلامَ بصمة إبهامك تتوسط العتبة؟

بين قدميكَ وابتهال الطفلة والعتبة وفرح الزوجة، سقط الزوج أرضا بنوبة قلبية أردته ميتا.

ما ترامى إلى سمعي ليلتها صراخ زوجته ونحيب الليل.

لا أجد ردا غير صفير الريح.. أسأل تلك الريح:

- هل سيأتي دورك أيضا؟

المطر، أله دور هو الآخر؟

غير أني أرجع خائبا، فصمت الشمس خير دليل على عدم معرفتها بيومها المؤجل.

القمر، البرق، الكواكبُ تحت لطمات السكون تتحير أجوبتها وتلمع كيفما قُدّرِ لها منتظرة أن تُلقي حمل أضوائها وتستريح.

توقفتُ يوما عند برعم لزهر النرجس..ذلك العاري إلا من طفولة الجمال، بعد أن ضممته بلطف سألته:

- هل ستبقى كما ألامسك الآن، وتتفتح فتيا، أم سيمر عليك طفل باذخ الأذى ويقطفك؟

هل ستعرف مَن أرسل الباذخ المؤذي، أم تترك الأمر لمَن تحيره التساؤلات؟

كان وليدا فعلا، لذا رفعت بصري نحو السماء ورجوتها أن ترعاه حتى أراه نرجس جمال.

عدتُ إلى داري بالكاد تنحني على ثغري ابتسامة، وذراعي هي الأخرى بالكاد تمسك بدفتر أدون فيه مشاهداتي اليومية.

لستُ أدري لمَ يتمهل الغموض في سيره معي ويعيش كما أعيش في عزلة تحاصرني وأحاصرها كلما اشتد في صوتي السؤال.

نمت ذات شتاء منهك، ثم صحوت على صوت جارنا، كان خائر القوى ينظر إلى رحيل طفلته في العتمة منحشرة في تابوتها الصغير، والمطر يغسل ثوب الحزن وحوائط الدار.

وقتما كف المودعون وعاد كل إلى بيته، خطف الشبح مرتديا ثوبا أسود مغطيا رأسه بالسواد. . ثم غاب.

أسرعت الخطى أتتبع أثره، لعلي أعثر على أي شيء يدلني عليه.

مختلفة كانت أسئلتي، فالطفولة تثير دموعا تغري العين على الهطول.

رجعتُ خائبا، لكن حين وقع بصري عل باب جارنا، لاح لي الإبهام الكبير ذاته، إبهام الشبح. . مما جعل الشكوك تدور في رأسي:

- لماذا لم ير الإبهام أي أحد، ولماذا أنا فقط أراه؟

كان صوت الظلام وحشيا شاكيا ظلم الطبيعة، والريح تخوض صراعا مع الأبواب.

بدأت غرفتي مثل مرفأ لا يحده شاطئ، اتسع كل شيء في تلك الليلة وصار موقد تساؤلاتي جمرا يسعر في محور الوجود.

أشياءٌ كثيرة تدور في بالي حتى صرتُ لا ذهن لي ولا صوت تجمدت أفكاري وأصبحت منعزلا حاولتُ التحرر منها منطلقا إلى الشارع، هزّني منظر عصفورة تضع الأعواد على عش في شجرة عالية وعناكب تحيك شبكتها بين الأغصان الطرية، حف قدمي ثعبان أرقط وعبر إلى مستنقع يحيط بالشجرة ذات العش.

الشعور بأن المرء يبحث عن مجهول يرهب مساري ووجهتي غير المهتدية إلى أية جهة.. عكفت راجعا إلى داري.. وقتما أرسل الفجر بعض خيوطه على الأبواب هالني ما رأيت.. بصمات إبهامات مختلفة الحجم على أبواب دور "حاموت".

الغريب أن بعض الأبواب تُركت دون بصمات..أسرعت الخطى والعرق يتدفق في صمت من جبيني.. ثمة بصمات أصغر من الأخرى.. وثمة أشجار تساقطت أوراقها بينما أخرى لمَّا تزل مستقيمة نضرة.

دنوتُ من الدور واضعا أذني متصنتا، لعلي أصل إلى صوت صرخة أو نحيب.. من عادة الشبح أن لا يظهر إلا بعد الدفن، لكن صمت الليل العميق رد علي بسكون الدور عند إذن عدتُ حاملا أغلال تعبي ووجلي، ثقيلة هي ومملة تلك اللّحظات التي انتظرتها لحلول الصباح.

مع أول بقعة للنور خرجتُ ثانية، رغم مرور بعض الطلبة الصغار حاملين توأمهم المملوء بالكتب، إلا إن شيئا مخيفا امتزج بأعضاء بدني.. عيناي تبحثان عن شيء ما لا تعرفانه.

جلستُ إلى أقرب مقهى أحتسي الشاي، مر صبي صغير يبيع الصحف وأقدام المارة تغزوا المكان.. اشتريت واحدة ودسستُ عينيَّ بين حروفها.

هبَّتْ نسمة لطيفة حاولتُ بمرورها اتقاء عرق سال على رقبتي، إثر حمَّى أوثقت مخالبها في بدني.

وأنا أقرأ في الصحيفة عن حرب قادمة بين مدينتي "حاموت" ومدينة مجاورة.. نهضت كمن عضه ثعبان قاتل.

يبدو أن البصمات كانت نذيرا لموت جماعي.. لموت اختص ناسا دون غيرهم.

شاهدت جارا يسكن الدار الثالثة بعد داري يحتسي الشاي ويلتهم الصحيفة مثلي.. آه لو يدري أن بابه ضمن البصمات، باب ابنه الكبير وابن أخته.

خبأتُ عينيَّ تحت النظارة هاربا من التقائهما في عينه.

يا ربي ألهمني الصبر، أو أبعد هذا الشبح، بتُ أخاف قربه مني وظهوره لي.

تصاعدت الحمى مثل كهرباء تدب في جسدي كله، حملت الصحيفة تحت إبطي وأقفلت راجعا إلى الدار.. في طريق عودتي أقبل نحوي جاري السابع يدعوني لحفل زواج ابنه البكر.

- "بكل سرور".

كان ردي فاترا والنار تسعر داخلي، في بابهم كانت ثلاث بصمات.. وأعرف أن له ثلاثة أبناء.

لستُ ادري كيف أو متى، لكن ما أدركه أن الموت سيخيم عليهم في لحظة ما.

ذات ليلة سمعت وقع أقدام قرب بابي.. ورأيت شكلا غامضا يلوح لي.. كان بلا وجه، يحاول أن يتلمسني، لكنني جمدتُ في مكاني، لم أدر ما أقول، فجأة شاهدتُ أشياء غريبة.

بيوت تنهار.. حرائق ونيران تلتهم كل شيء.. أحسستُ بنفسي جزءاً من هذا الحشد.. لم أكن محصنا مثلهم.. كانوا يضعون الخوَذ على رؤوسهم ويركضون. سيارات الإسعاف تطوف الشوارع.. سيارات نقل الجثث تملأ المكان.

لم أشعر بأنني موجود، أو أقف على أرض.. ما أعرفه أنني على أرض "حاموت"، لكن أين أنا الآن.. قريب من نار تلتهم الأخضر واليابس، قريب من أكوام الجثث.. وقريب من عواء كلاب تلعق بقايا عظام محروقة.

وددتُ لو أعود إلى ما كنت عليه قبل حضور هذا الغريب، أن أرى شكلي كيف أصبح بعد هول ما رأيت، أن أحرك لساني ربما يفوه بكلمه ترشدني إلى واقعي الحقيقي.

كل شيء أصبح بعيدا عني.. كل شيء.. حتى ذاتي وهويتي، كل شيء يبحث عن شيء، ولا شيء.

الجميع في "حاموت" شارد الذهن.. أسمع أنين الأمهات، الزوجات، الأخوات والآباء.. الجميع يلطم ويشهق.. رجل مسن يصرخ هو الآخر:

- يا لمصيبة "حاموت" ومصيبتاه.. أولادي الأربعة، حكمتك يا رب.

انطلقت أصوات أخرى مخنوقة العبرات، واختفت في الزحام.

أفواه ممزقة.. أفواه حائرة وأفواه خنقها العويل.

كأنني كنتُ على متن سفينة هائلة الأحلام أو معبأة بالصور، انتبهتُ لحظتها وإذا بي واقف على عتبة داري، وجارتي العجوز تهزني:

- ما بك يا ولدي.. ما الذي جمَّدك هكذا، اصحُ قليلا.. هل أجلب إليك الماء؟

أجبتها بذهول:

- أشكرك أمي، لكن ما الذي حدث وأين أنا؟

- أنت على عتبة داركم بني.. ألا تحضر معي عزاء جارنا "أبو حامد" أربعة توابيت على بابه تنتظر الدفن، أربعة محروقة لم يتعرف عليها إن كانت إليه أم لغيره، لكن في النهاية هم أبناء "حاموت".

(2)

شريعة العصا والحجارة، الخنجر والسيف، شريعة القذيفة والرصاصة، القنابل الذرية واليورانيوم، شريعة القتل الجماعي، غرق السفن والبواخر، شريعة الفيضانات والكوارث، شريعة تسونامي والرياح العاتية.. سقوط الطائرات والأوبئة.

بالنتيجة كلها بصمات وإبهام... وإن اختلفت الطرق يبقى إبهام واحد أو أباهيم تتسلق حياتنا وتخنقها.. تمتد مترامية نحو الشمال والجنوب.. العزلة والصمت، الصراخ والضجيج، السلم والحرب.. أباهيم.. أباهيم منذ الأب الأول حتى.. حتى متى لا نعرف.. هو الجواب المجهول الذي أرجوه من شبح يفسر لي ويوضح شكل "متى" هذا الظرف الزمني المجهول.. ويشرح لي أيضا موقفه مما حدث وسيحدث.. وجهة نظره الشخصية، قلبه، ليته يكشف لي هذا القلب اللعين لأرى محتواه،هيأته، نواياه، قوته ضعفه، جبروته وخنوعه.

يبين لي كيف كانت بصمته على "هيروشيما"، هل للموت الجماعي بصمة واحدة أم بصمات بعدد المحروقين فيها؟

ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية.. هل كان إبهامه خصبا نديا برائحة الموت؟

متى يكشف النقاب (عمَّن ولماذا وأين)؟ ربما اقتربنا من الـــ "متى" ولا نعلم. أظننا اقتربنا فعلا.

جدب الأرض والموت جوعا، أهذا معيار لمن له قلب فعلا؟ الموت برصاصة أو قذيفة، أو سم، أهون بكثير من الموت جوعا وعطشا.

الموت البطيء، جريمة كونية. هل لأطفال الجوع جرم كي يعاقبون عليه بالموت جوعا؟

إن كان بإمكانه حصاد البشرية كما يحصد الزارع حقله فعلام التعذيب جوعا وعطشا؟

أي قلب لدى هذا الشبح؟

إنني أهذي فعلا... ربما لا علاقة له بهذياني، وربما هو مجرد شبح لشخص ما، يتألم مثلي ويملك معيارا من الإنسانية، ويقدر الذي أمر به الآن.

الإنسان حينما يطارده الضيق يهذي، وينظر إلى العالم من ثقب إبرة.

الهبة الحقيقية للحياة الموت.. أمر غريب فعلا.. مكافأة النور بالظلام.

العطور والألبسة الراقية، مساحيق التجميل والمجوهرات، العاري والمكتسي، مبيدات الحشرات الفتاكة بقتل مئة حشرة بنفخة واحدة.. مقارنة غريبة فعلا.. صانع المجوهرات والمشتري واللابس ومبتكر المبيدات كلهم ستأكلهم الحشرات والديدان.

أصحاب العروش والكروش، الممالك والجبروت، وبصمة واحدة تقلهم إلى الدود.

هبة كونية جعلت الحياة أمرا محظورا على الجميع، ولا بد من إحالتهم إلى الدود. وكأنه يقول لنا،هذا الدود اللعين:

- وإن صنعتم المبيدات، مصيركم إليَّ، ابتكروا ما شئتم سألتهمكم كيفما أشاء.

الإنسان كائن غريب، يعقد عزمه على الرضا بواقعه، ثم لا يرضى حين يمتلك ما رجاه أو رغبه.

تتهافت الناس على شراء العقارات والأراضي، الذهب الملطخ بالدماء، العروش الفاجرة . . الدمع المتهالك صبرا والأذرع المنهكة عملا . . كلهم يشملهم الحضر.

الأصباح مليئة بالعواصف حين أفكر في وجهتها . . والأيام جوقة تعزف الشخير.

الناس عجولون، يشترون ويبيعون، يبصقون على الأرض ويتنفسون أبخرة بصاقهم . . لا أحد يسأل عن الوقت بين خيَم الأعراس والفواتح المنصوبة في شوارع "حاموت".

استطال الزمان أو قصر، غيَّر أسلوبه أو بقي عليه، يبقى للمكان سطوته وحضوره . . المطاعم والأسواق، باعة الخضار والفاكهة، محلات بيع الملابس الجاهزة والأقمشة، الوليد والصبي والعجوز، النهود النافرة والأجساد الرشيقة، الممتلئة والسمينة، المعصبة والحاسرة، الحماقة والحكمة، الخراف والحمير والجمال والخيل، "وحاموت" سفرة مستديمة.

وأنا . . أنا من يبحث عنِّي بينهم، وعن شبح؟

وعلي أن أسأل وأجيب على تساؤلاتي . . لمَ أصبحت الناس وحوشا بشرية؟

وحوش تأكل بعضها وتغرز الأصابع في الحنجرة، تدمَّر الحدود وتنتهك الأعراض. هل تشهد تفاحة آدم على إثم مبتكر؟

تفاحة واحدة غيرت مسيرة آدم، هل للشيطان وحواء دور في ذلك؟

أية غواية هذه، ألم يقدر الله لآدم ذلك وهو الذي خلقه؟ هل كان يلقنه درسا في الطاعة وقوة الإرادة؟

ماذا عنا الآن وقد عظم الإثم واستفحلت المعصية؟

هل خلق الله في دواخلنا شجرة أخرى ويمتحننا؟

و"حاموت" ماذا أكلت كي تُعاقب؟ وما شكل الشجرة؟ النخل، التفاح، وهل أخطأ النسغ أم الأوراق؟

شجرة "حاموت" تتغذى الآن على الجثث، على الجرحى والمجلودين وعرق المساجين،المضروبة أعناقهم والشهداء.

هل التف الشبح حول الشجرة؟ هل حضر احتضار جذورها؟

ويلك يا "حاموت" شجرتك مجزَّأة، ارفعي الأرض إليكِ واصنعي منها خبزا للجياع.

يبدو أنني أكرر الهذيان كلما اختليت مع نفسي.

مالي و"حاموت" وحدودها وحراسها، اليقين فيها درب شائك، والحقيقة مجهولة.

كلما أوشكتُ الابتعاد عن التفكير فيها، ترجعني الأحداث.

انتشرت في المدينة إشاعات عن وجود شيطان يظهر في الليل ويختفي في النهار. أحدهم أجزم أنه رآه يعتلي حصانا خشبيا.

آخرون أنكروا عليه كذبته وأصروا أنهم شاهدوا عجوزا متكئا على عصاه، بأسنان طويلة تمتد إلى صدره.

بينما الصبية قالوا أنهم شاهدوا شخصا طويلا جدا، بحيث لم يستطيعوا الوصول إلى رؤية رأسه، ذو قدمين كبيرتين كأنهما المسحاة، وساعدين يسحَّان خلفه كمن يجر ساترا كبيرا.

تبرع بعض الأهالي بالحراسة ليلا كي يدرأوا خطر الكائن الشيطاني.. ويكيلوا له اللّعنات، لأنه جعل أيامهم قلقا ولياليهم سهرا وخوفا.

عشرون ليلة مرت ولم يظهر شيطانهم المزعوم.

قالت امرأة مهووسة بالشياطين: أنها شاهدته يقترب من دارها، وحالما تعرفت عليه تحول إلى شجرة، ثم أشارت لشجرة قديمة تآكل ساقها وجذرها.. ضحك الجميع واستنكروا، فموقع الشجرة وشكلها لم يتغير منذ مئات السنين، وكأنها تشير إلى عمق أصالتها وامتدادها إلى الأجداد... لكنها أصرت أنه اقترب من بابها... شمت رائحته ولهاث أنفاسه.

التزم الجميع الصمت، وهز أحدهم يده مستنكرا الاستماع لأحاديث المهووسين.

برمت شفتيها ودخلت دارها مدمدمة بشتيمة للجميع.

وقت رجوعي من الحشد تذكرت قولها (اقترب من بابها) أسرعت الخطى فاحصا الباب، تنفست الصعداء حين لم أشاهد عليه بصمة الشبح.

خرجت أتبضع بعض الحاجيات صباحا، قرب البقال رأيت العجوز المهووسة تشتري قمحا طلبت مني أوصلها إلى دارها بسيارتي فالحمل ثقيل عليها، أمسكتُ بيدها المرتعشة كي نعبر الشارع، لكنها أفلتت يدها بقوة من يدي.. لا أعرف ما الذي

دعاها إلى ذلك.. أسرعت خلفها أنبهها لفعلتها، لكن شاحنة مملوءة بالحمولة لم تحقق لنا ذلك.. لم يتحقق عبورها، ولم أستطع تحذيرها.

لملمنا بقايا جثتها وقمنا باللازم.. ما استغربته هذه المرة أن بصمة الإبهام كانت على جبينها مغمسة بدمها.

أتراه غيَّر لون البصمات؟

إنه يومها الأول كوليدة بين أحضان الموت، لكنها عجوز الحياة.

(3)

ونحن في سيارة الإسعاف متوجهين إلى المستشفى، تمنيت أخذ بصمة الإبهام، لكن الدم سرعان ما جف ولم يترك أثراً غير بقاياه.

يا لسوء الطالع، ما الذي يحدث لي؟هل أراد أن يريني الموت وجها لوجه؟

هل هو الشيطان الذي رأته العجوز؟

أتساءل ويتردد صوتي في صدري كأنه الانكسار. . سمعت أطفال محلتنا وهم يلعبون يتناقلون حديثا سمعوه من آبائهم:

- الشيطان انتقم من العجوز لأنها عرفت مكانه، وأشارت إلى الشجرة التي اختبأ فيها. كل ليلة يظهر ويلتف بالظلمة.

أكبرهم سنا طلب من الباقين عدم اللّعب في الشارع ليلا.

كما كفت النسوة من الذهاب إلى الشجرة العتيقة والتبرك بها ومسحها بالحناء، ولم تعد رائحة البخور تعبُّ منها كل خميس.

صار الخوف من إرث الأجداد والاقتراب منه يعني لأهالي "حاموت" هو السخط والموت المحتم. . . شجرة الأجداد منذ أن تركوها إرثا لنا ولم نعتنِ به أصيب إرثنا بالقحط والجفاف.

لم تعد تورق كسابق عهدها، ولم تمتد أغصانها إلى الجهات الأربع بل بقيت على حالها السابق، مشرعة ساقها الممتد إلى الجذر المعانق للأرض وتتطلع في وجوهنا.

الحديث عن الشيطان يشغل جميع المقاهي والأسواق، العقلاء والخبل. . . وباتت الميتة من الحيوانات شغلا لهم أيضا.

ذات زيارة لي لمقهى " عبّود" سمعت عن إشاعة ظهور الشيطان في إحدى حظائر الأبقار. . ولهول منظره جُن البقر وهاج إلى الشارع، وكل من يأكل من لحمه يجن. . أعدمت وزارة الصحة مئات الأبقار. . الجشعون باعوها لجزَّارين مثلهم بأسعار زهيدة.

والذين يخافون ربّهم استسلموا لأمر وزارة الصحة.

بعض من اشترى اللحم المريض قال انه وجد كلمة الله محفورة على فخذ البقرة، لا أدري هل هي إشاعة من الجزار ذاته كي ينفق اللحم في محله، أم حقيقة، لأن الناس لجأت إلى محال الخضار وتركت الدواجن واللحوم.

خرج الشيطان من وكره وعطس، ولأنه كان قريبا من ديك على أحد أسوار مدينة "حاموت" أصيب الديك "بانفلاونزا الطيور".

هذا ما يجعلني أعيد تساؤلاتي عن اسم "حاموت" أصلها وفرعها، هي ليست مدينة خاصة لي، والسكان الذين أعرفهم، ذلك لأن خبر جنون البقر وإنفلاونزا الطيور تناقله الإعلام العالمي المرئي والمسموع والصحف.

أية عطسة هذه التي ينتشر رذاذها في الهواء ليصل كل بقاع الدنيا شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

ربما للشيطان مساعدين يعينونه على نقل هذه الأمراض وينشرونها،

أو هو كبير إلى درجة أن تصبح الكرة الأرضية بين يديه بحجم الدرهم.

هذا يعني أن "حاموت" ليست مدينتي، إنما مدينة "كونية"والموت هو قمع للحياة التي تتفاعل مع الموجودات في الكون، ثم يأتي ليفسخ هذه العلاقة.

هو الغابة المتطاولة بلا انتهاء، والشيطان والشبح هو المركب الوحيد الذي يبحر فينا إلى زمن ما.. وبوجوده لا زمن مطلق.

في قطار متجه إلى مدينة من مدن "حاموت" ركبت العربة العادية، وليس الدرجة الأولى.. لأنني أحب الزحام ورؤية الناس وأحاديثهم وشرودهم وكل ما يخصهم حين ينحشرون في عربة.. جلس قبالتي شاب يتكئ عليه أبوه المريض قاصدا طبيبا مختصا بأمراض القلب، هو لا دراية له بالأخصائيين، ولا معارف في المدينة التي يقصدها. فطلب التقرب مني وأخذ المشورة.. وبما أنني بنفس اتجاهه تبرعت بمرافقته حتى يرجع إلى أهله بأب سليم معافى.

كنا نعد الأشجار التي نمر عليها ونمزح، قطار الليل يمضي بنا والوجوه والعيون تحدق بالوقت.. بعضهم له حديث خاص مع مرافقه، آخرون التزموا الصمت طول الرحلة.

كنا مزيجا بين الصمت والثرثرة.. وجوه شاحبة ووجوه فتيَّة.. من فرط الإعياء نام أغلبهم، وأنزل بعضهم حقائبهم لتناول وجبة مهيأة في المنزل.

أدخلنا أباه المستشفى التخصصي بالقلب لإجراء الفحوصات اللازمة وجلسنا في مطعم شعبي نتناول وجبة الغداء.. طلب هو كبابا مشويا مع البطاطس المقلية، وأنا مثله طلبت لكن بالخبز وليس البطاطس.

قُدمَ لنا الطعام الشهي ورحنا نلتهم اللقم بشراهة، لكنني أصبت بمغص مفاجئ مما اضطرني الدخول إلى الحمام. . . غبت ثوان فقط، وفي عودتي وجدته مصفرا. سألته: - ما بك هل تشعر بتعب؟

أجاب:

- لا أدري. . أغواني شكل الإبهام المنفوخ في قرص الخبز خاصتك فالتهمته دون استئذان منك. . يبدو أن اللقمة هذه تعاقبني على سرقتي منك. . ابتسم، ثم خفت مثل جمرة صُب عليها الماء، وضع رأسه على الطاولة بين بقايا الطعام وشخر. شعرت بروحه تدور حولي توصيني بأبيه.

هذه المرة الثانية التي يضعني الشبح بالمحك مباشرة أمام الموت. . لم يكن يومي المحتوم، بل يوم هذا الشاب الذي جاء باحثا عن حياة لأبيه، وبادله الموت بحياته.

أعرف ألا أحد قربي. . لكني رحت أحادثه كشخص قريب إلي:

- لماذا لا تظهر لي؟

- لنتواجه شخصا لشخص. . إنسان لإنسان،ليس شبح لإنسان.

التف الناس حولي يهدئونني معتقدين أنني أصبت بهذيان المفاجأة والصدمة. . . لكنني لم أكترث لصوت غير صوتي:

- أين أنت الآن؟ في داري، في الطريق، في وسط المدينة، وراء باب تنتظر أبا أو أخا، بين ذراعين مفتوحتين للعناق، أين أنت؟

عند العصر، وبعد أن سلمت الشاب للمشرحة وأخبرت أباه بما حصل، رجعت مثل عصفور مبلل بمطر أسوَد.. أحمل بدنا تخشب وخارت قواه.. عصاني المفتاح لا أعرف ما الذي دهاه.. وفي آخر قبضة لي عليه شاهدت إبهاما على قمة الباب.

عيناي تحجرتا.. وشُلت أعضائي.. وضعت نفسي على السرير متأهبا للحظتي الأخيرة.. انهالت علي كل الأفكار السوداء.. كل الأحداث التي مررتُ بها، وكل أشكال الموت،عدت عيناي ثقوب السقف، كانت أكثر من عشرين.. كيف لم أرها سابقا وأقوم بتعبئتها بالجبس؟.. وما الفائدة الآن من التفكير بذلك، أرد على نفسي وأضحك ضحكة صفراء.

لمتُ نفسي عل عدم الزواج والبقاء دون نسل يخلفني بعد لحظتي هذه.. أحببتُ جارتي "سعاد" لكن أهلها زوجوها لثري وأنا مازلت طالبا في الثانوية.. أقسمتُ لها حين ودعتها لن أتزوج غيرها، وهي أقسمتْ لو رُزقت بولد ستسميه "محمد" كي تسمع اسمي كل ثانية، وترددد بصوتها الشجي.

كلّما زارت أهلها كانت تقف على عتبة الدار وتنادي ابنها "محمد" بأعلى صوتها كرسالة لي:

- أين أنت حبيبي.. تعال لا تغب عن ناظري، أخشى عليك من اللعب في الشارع.. ألا تدري يا بنيّ كم أخاف عليك؟ أحبك أمي.

أخرجُ مسرعا لسرقة نظرة خاطفة منها، وأدخل خشية الأقاويل والتكهنات من نساء المحلة.

انهالت عليّ الذكريات الجميلة وأول قبلة لنا تحت ظل تلك

الشجرة المسكونة الآن بالشبح كما يدَّعون. . . وحين مررت يبدي على نهدها النافر هربت راجعة إلى دارهم.

آه على النور الأول والأخير في حياتي. . ماذا سيعمل لو سمع خبري غدا أو بعد حين؟

أتراها ستمضي إلى شجرتنا وتنحب على حبها الراحل؟

أعرف أنها لم تألف زوجها، فقد زوجوها قسرا. . ستفرد ضفائرها المدهونة بالمسك وتندب صمتا.

زحف الجليد على بدني، بدأت ألملم جسدي المخذول وأكوره. . كلما تذكرت شيئا تطلعت إلى ساعة على الحائط. . المعدن تواطأ مع الشبح ولم يعلن بأية دقيقة ستلتحم عقاربه.

لم أصلي خوفا أو رغبة بثواب، لكني صليت ممدد الجسد، ولفظت الشهادة مئات المرات. . لم أتذكر كم عدد التسبيح بين شفتي. . الأعداد غابت عني وعن عيني وذاكرتي. . حتى صحوت على صوت مواء لقطط صغار.

أنه الصباح. . تحسستُ كل أعضائي، وفرحت، نهضت مسرعا إلى صوت القطط الصغيرة. . أنهن خمس قطط جميلات، والقطة الأم ترقد شاخصة بصرها إليهن.

لم أحب القطط إطلاقا. . بل هي محبتي بالعجوز التي سبقتني إلى الموت، كانت تربي قطة بيضاء جميلة. . أخذتها إلى داري رحمة بها من الجوع. . وهي الآن تلتحق بالعجوز، تاركة لي تربية خمس.

إذاً. . دخل الشبح داري البارحة. . وهي بداية لصداقة على ما يبدو.

(4)

هل نموت لنحيا أم نعيش على أرض "حاموت" منتظرين موتا محتوما؟

هل بعد الموت حياة فعلا؟ ألا يستحق موتنا ثوابا بحياة جديدة؟ عوقبنا بسبب حياتنا ولا بد من الثواب.

نعانق، نحب، نعشق، نأكل، نخاصم، نسامح، نستذكر، ننسى.. حراك، ضجيج، صمت، نوم، يقظة.. كله سيذهب هباء.

هل صدفة جئنا نجمع ساعاتنا منذ الولادة حتى نختصرها بثانية، أو أقل من عُشر الثانية؟

كأننا في سيرك ونسدل الستار بعد انتهاء اللعبة.

هل أنا "محمد" ذاته وهذا ظله يلاحقني، أم أنا الاحق ظلي وأتبعه؟

قطرات المطر التي ينتظرها الشجر،اللقاح والريح،تويجات الزهر،كيف يتقنون تواصلهم مع الحياة؟ حتى تكشف الطبيعة النقاب وتفصح عن لغة نهايتهم وتريهم وجهها الآخر؟

متى أيها الصامت تظهر لي، لا أريد ملاحقة ظلك أو شبحك، لنتواجه فعلامَ التخفي؟ أتُراك خائف؟ ما المسافة بيني وبينك؟

ما هو الطريق الذي يجب عليَّ سلوكه لأراك؟

أخبرني أسئلة كثيرة تحيرني وأريد منك أجوبة شافية.

لماذا تضعني أمام صمتك، ومَن أنت؟

تصاعدت التساؤلات في رأسي حتى كدت أصاب بالجنون. هل تجنِّنْ كل من يريد معرفتك والاقتراب منك؟

أنا وحدي الليلة في داري.. سوى قطط صغيرة يتيمة، مات اثنان منها البارحة، أي نعم وستموت غدا ثالثة أعرف ذلك، بل سيموتون كلهم،

مازالت بصمتك على بابي، كلما محوتها ليلا استقرت صباحا في مواضع أخرى من الباب.

طالما أنت تحوم حولي هذه الأيام، فالموت لا محال في بيتي.. دعنا نتصادق، ما اسمك؟

لم أكد أنهي سؤالي حتى سمعت حركة في غرفة نومي... وأنا مستلق على فراشي، قلت:

- أراك وحيدا مثلي، لا صديق ولا أقارب أو عائلة.. لا أظنك عشقت كما كل العشاق.

لماذا جعلت فئة من الحاقدين والقتلة يعترضون موكب عرس في "حاموت" ويذبحون الموكب كله؟ يرمون جثثهم في النهر، الرجال اغتصبوا نساءهم أما أعينهم، وكذا العروس اغتصبوها لأيام وحبيبها مكبل ينظر بعين مجنون، أين أنت منهم ومن شيخ المسجد، هل تعتبره كافرا حين يأوي قتلة وتتم جريمة الاغتصاب والقتل في مسجده وأمام عينه؟

لمَن كان عقابك وكيف وضعت بصمة إبهامك هنا؟

الم تختفي البصمة في الماء؟ فقد رموا الجثث في النهر.

لستُ أدري إن كان القتل اغتصابا امتحانا للظالم أم المظلوم، القاتل أم القتيل.. عاث أمثال هؤلاء في "حاموت" فسادا ومازلتَ جاحدا تنتظر ميعادك أنت، ميعاد شريعتك، كن عادلا لمرة واحدة وبين لي بأمانة وشرف، شرف الرجال لا الأشباح.

أزح قناعك فنحن في زمن الأقنعة... كلهم مقنعون، وكلهم نائمون، أنت وحدك اليقظ.

بتُ أسمع خطواتك أيها المحجوب، لا أدري هل أسميك الشبح أم المحجوب؟

اختر أنت اسمك إن كنت تسمعني، بل تسمعني وتراني لذا اخترتني..

لقد استحالت النفوس إلى كره، والضمائر إلى وحل، إلى آكلي لحوم البشر.. لعلك تطهر الأبرياء بالقتل وتزيد إثم من اعوَّج علقه وضميره.

مرايا وهم، كلما بحثت فيها عن نفسي لا أجد شكلا لي.. فقط أرى ظلالا وسوادا.

الجار يتآمر على جاره ويتحول إلى ثعبان مبين، ينام الناس في "حاموت" منتظرين أجلهم في أية لحظة.. تتحقق أحلام الجشع ولا تتحقق أحلام الفقراء.. ربما الجشعون أوفر حظا من الفقراء.. ربما هي حكمة كونية.. لتصبح "حاموت" مهبط الظالمين والمستنفعين، والقتلة.

سمعت شيئا مثل حفيف شجرة، أو أطراف ثوب طويل تخطف

ريحه قربي.. تمسكتُ أكثر وشددتُ كل قوتي.. ازداد الحفيف قربا مني، أدركت لحظتها أنني سأحتفل بحضوره.

بدا كل شيء غريب عني، داري، فراشي، أغطيتي، أنا، حتى أنا صرت غريبا على نفسي.

أصبحتُ شيئا بذراعين وعينين، إشارة وأنفاس تصعد وتهبط، دارت أرض الغرفة سريعا وبطيئا، ثم أسرعتْ أكثر من ذي قبل، سمعت أنفاسا قوية تحف برقبتي، تطاير شَعري وبدني أصبح بخفة طفل وليد، ثم ثقل بحمل جبل.

أحسب أنه يتوق لأخذي إلى مكان ما، لا أدري بالضبط أين، ربما حيث سكنه.. شعرت فجأة بفيض من الشفافية والهدوء.. فركت عيني بقوة، ثم ببطء، ثم بقوة، حتى رأيته جالسا أمامي.

تخشبتُ مثل شجرة في قحط.. لم أفه بكلمة.. كل ما فعله أنه فتح التلفاز وصمتَ ليسمع نشرة الأخبار.

كان الخبر عن "إعصار ساندي" سيكون الأعتى الذي سيصيب كندا وأمريكا.

عرض التلفاز صورا مرعبة للدمار الذي خلفه هذا الإعصار ثم واصل المذيع قراءة الخبر واجم الوجه بينما صاحبي لم تهتز فيه شعرة لهول الصور.

(وأصبح ساندي الآن إعصارا ما بعد مداري، ومر فوق ساحل نيو جرسي عند الساعة الثامنة بالتوقيت المحلي للساحل الشرقي الأمريكي (منتصف الليل بتوقيت غرينتش) بسرعة رياح تصل الى نحو 85 ميلا بالساعة (137 كلم بالساعة).

وقال المركز الوطني الأمريكي للأعاصير إن المنطقة قرب

مدينة "اتلانتك سيتي" قد ضربت بالإعصار برياح عاتية وأمطار غزيرة. وإن المياه غمرت شوارع" نيويورك ولونغ ايلاند ونيوجرسي".

وغمرت المياه أحياء بكاملها بجنوب مانهاتن بسبب الفيضانات الكبيرة التي تسبب بها الإعصار في نيويورك، كما ارتفع منسوب نهري "ايست ريفر" و"هودسون ريفر" وغمرت مياههما الأنفاق وغمرت قطاع "باتري بارك" في جنوب مانهاتن) وقد يتضرر في الإعصار نحو 50 مليون شخص في الولايات المتحدة، وقد تم إخلاء مئات الآلاف من منازلهم، وقد انقطع التيار الكهربائي عن نحو مليون شخص).

مد يده وأغلق التلفاز مبتسما، ثم تطلع في وجهي المحتشدة فيه مشاهد الدمار والموت.

أليس من الجنون أن نلتقي في لحظة زوال الآلاف وحضور الموت.. لم أستطع توجيه أي سؤال، عن بَصمته هنا.. كيف، أين، أي شكل.. فقط أصابني الخرس.

أشار إلي بإصبعه:

- سأنقلك إلى ما وراء الحياة لو رغبت، وإذا صعب عليك الأمر سننتقل إلى داري. صمتَ برهة ثم عاود الحديث:

- أنا الآن أمامك. ما الذي تريد معرفته؟ فقد أرهقتني بتساؤلاتك وإلحاحك على رؤيتي وها أنا ذا البس زيَّ رجل وأكلمك. قلتَ سابقا لنتقابل رجلا لرجل ونحن معا الآن يا صاحبي.

سألته: - ما اسمك؟

قال: - عزيز. وأنت محمد.

ارتعدت مفاصلي بسؤال آخر:

- هل كنتَ هناك، مع ساندي؟

ولحظة هز رأسه إيجابا دارت الدنيا بي ووقعت مغشيا علي.

(5)

لا أدري كم مضيتُ من الوقت، ولا أدري كيف كان شكلي أو شكله، لأنه ظهر لي بهيأة رجل كما قال، ربما هو ليس إنسيا، جنيا مثلا، أو شبحا.. إنما تجلى لي بشكل رجل قوي، شديد البأس، هادئ، وقور.

تفحصت المكان، كان هادئا جدا، أدركت عندئذ أنه تركني أفيق وحدي، وأنني غير قادر على اكتشافه والحديث معه.

لم أستغرق في نهوضي من الفراش إلا بضع ثوان، وما إن توجهت صوب القطط حتى وجدتهم نائمات وكأنهن في عرض خاص لمواجهة مصير جديد.

دخلت مخزن المؤن في المطبخ واستخرجت بعض أكياس من الشاي، كان على باب المخزن عنكبوت محشورة بين خيوطها. حاولت إزاحتها، لكنها لم تتحرك. ابتسمت وصدرت مني كلمات هامسة:

- حتى العناكب لم تسلم منك اليوم.

أعددتُ فطورا خفيفا وتركت المنزل قاصدا الشارع دون تحديد وجهتي.

الكنّاسون عاكفون على تنظيف الطريق من بقايا دم وأصابع أخذت ركنا تحت الرصيف.. ثمة بقايا جثة يحاولون جمعها في أكياس ملطخة بالأوساخ والدم.

يبدو أنني في نومي العميق أو الإغماء لم اسمع صوت التفجيرات في الشارع، ولم توقظني الضجة.. عرفت لماذا تركني وسلط أشباحه الغامضة على تنظف أبناء "حاموت" من الحياة فهم لهم في كل شبر منها يد وبصمة.

بعد ساعات عاد كل شيء لوضعه السابق، وكل انهمك في استقبال يوم جديد.

ما من أحد كان يتحدث، الكل يعمل بصمت، لا أحد يضحك.. جلست عند أقرب مقهى.. كانوا يدخنون بصمت، سوى أصوات رشف الشاي، وطقطقة الأصابع.. حمالون، فقراء، عمال، موظفون، بائعو الخبز والفطائر، كانوا مجرد كائنات تتحرك.. يا ربي ما الذي أصاب الناس اليوم، وبأي نوم عميق أدخلني "عزيز".. هل كان قاصدا ذلك كي لا أتعرف على فعلته مسبقا؟

ربما حصاده الأكثر عدد من القتلى بقذيفة مأجور لمنظمة إرهابية هو السبب..

تهرب مني حتما ليضعني في الصباح أمام رائحة الدم.

تركت المقهى ومضيت أمشي مكتشفا بؤس هذا اليوم وأتعرف على الديمقراطية العاهرة، والحرية العارية التي أوهمت "حاموت"، كانت العيون عارية من الدمع أو تحجر فيها والابتسامات أصبحت وحشا يكشر عن أنياب الحزن.

الحزن اللعين يخرج من وكره مثل ذئب، ويترك القلوب أحصنة هائجة، فتندفع إلى حضن كارثة أفرزتها أشباح الليل.

أصبح الزيف والحقد والكره، والرشوة والسرقة والقتل والتهجير وسرقة الأطفال وبيعهم لميسوري الحال والزنا المشروع وزج القاصرات فيه، عناوين الصحف اليومية و"حاموت" تتفرج على الكبائر المحللة والمشروعة.. وتقدح شرارة الصمت.

لم تعد حرمة للأماكن المقدسة الكنائس ومقابر الأولياء.. الشياطين البشرية تسللت إلى القوت اليومي والماء والكهرباء، إلى بطون الجياع والعراة واقتات عليها، على الرزق والقوت والابتسام.

تعدد الألوان والأديان والقوميات لم يبق حكمة إلهية لاختلاف خلقه والتعايش السلمي، بل صار حربا علىبشرة واللون والعرق والدين وبقعة الأرض حتى بات الشبر منها مستحلا وبقعة نار.

"حاموت" مكتظة بالدخلاء الذين أفسدوا الحياة الجميلة فيها وراحوا باسمهم وباسم الله يحصدون الأرواح، ويحللون قتل المخالف لهم وتكفيره، فبالتالي لهم الأحقية في ذبح الكافر وكأنهم سيوف الله.. عاثوا فسادا وحللوا النساء الصغيرات والشابات، ووصفوا أنفسهم بالمنذرين وهم أشد الخلق خطرا على اسم الله لتعاظم الحيوان المفترس فيهم.. حللوا الشهوة لهم بأحقية سبي النساء والاعتداء على الأعراض وحرق الأحياء وكأن شهوتهم لا تكتمل إلا بالحرق... بشروا بكره الحياة وليس بمحبتها، ووأدوا كل أمنية سامية وحلما يسعى إلى الفضيلة والكمال.

عدت إلى الدار راجيا التحرر من يوم انهمرت فيه المآقي قبل العيون.. قطعت الطريق بطيئا لا تحملني قدماي، خامرني حدس أنني سأجده هناك ينتظرني. وصدق حدسي.. رأيته أعد لنا وجبة غداء وجلس ينتظر قدومي.

جلسنا نأكل بصمت، كلانا ينظر بعين الآخر ولا يتكلم، كلانا يسحب السؤال القابع في الأحداق وينتظر مبادرة الآخر.

شربت كأس ماء وتجرأت على الكلام:

- كنتَ هناك البارحة، في الشارع الموازي لمستشفى المجانين ودار المسنين والأيتام؟

نعم، أجاب واستمر يأكل دون اكتراث لحزني. قطعنا شوطا في الأكل والصمت لكني ثرت فجأة وكأن بركاناً هائجاً بداخلي:

- لم يسلم من أذاك أحد؟

هل جعت لوجبة مسنين ومجانين وأيتام؟

هل كان اللّحم طريا لذيذا؟

أعرف ما في قلبك من حقد، أما مِن رادع لأفعالك؟

قسوتك، شدة بأسك القاسية، جبروتك، عدد المذبوحين في الكنائس والمساجد، ألم ترأف لمنظرهم وقلوبهم المرتعشة خوف الذبح؟

سرائرك ليست كلباسك الأبيض الآن، أكيد على خلاف دائم بين باطنك وظاهرك.

أخبرني مَن يدفعك إلى ذلك؟

من يجعلك تبرر غاياتك لتجني حصادا بشريا؟

أنت عدو نفسك قبل أن تكون عدونا في "حاموت" تخلق لنا حربا وأسبابا، تسمم الأفكار والنيات، تزرع الخصام، لتتفرج على المعترك، وتنصب نفسك ملكا ظافرا.

لا اطمئنان في راحة، ولا سلم نرجو منه الظفر. . هل تسمي هذا شجاعة منك؟

ألم ينبض قلبك يوما بالأخلاق الفاضلة والحب؟

هل يتساوى عندك الخير والشر بحيث تترأس علينا حكومات جائرة . . تموت شعوب، وتُحرق أحياء؟

يا أخي أي قلب أنت؟ ما مقياس الخير والشجاعة عندك؟ وما الطاعة؟

أظن أنك عبدٌ مطيع وخائف، ولا يستبيح الناس ويُشرِّع الظلم إلا الخائف المطيع.

تطيع مَن يا عزيز؟ أنت عزيز؟

رحت أضحك بهيستريا وجنون. . أضحك من أجل الضحك،وهو يأكل وكأنني لم أوجه الكلام إليه. . مسح فمه من بقايا أكل، وشرب آخر رشفة له من كوب الشاي، ثم استقام واقفا:

- نعم، أنا عبد مطيع، فلا تفرغ غضب لومك علي.

- عبد؟ عبد لمن أيها القاسي؟

- أنا عبد سيدي "جليل"

جليل؟ مَن جليل الذي تتخفى باسمه وتحت إمرته؟

- ستعرف لاحقا، ليس الآن.

- متى؟ لقد استفحلت المظالم، وبات القتل كشربة ماء. . كيف تلتقي القسوة بالضعف؟ هلَّا أخبرتني؟

- ما الذي تقصده أوضح؟

أجابني بسؤال وعينيه على ساعة الحائط، لم أرد عليه، رغبت تركه يتحير مثلي وتعقد لسانه الأجوبة الحائرة. عبد، هل يُعقل هذا؟ دمار "حاموت" بيد عبد؟ لا أصدق.

وثب غاضبا:

- أنا سيدك، فلا تقل عبدا، وإلا نفضتُ جلدك من دمك، وسخطتك بويلي وقوتي وجبروتي وأحلتك جثة هامدة.

أعرف أنك جبَّار وقادر على السخط ومن يملك قلبك يسهل عليه ذلك، فأنت عديم القلب.

وأعرف أنك ستضع يدك غدا على عدد لا يُحصى من الأطفال أو أحصيته أنت وقدرت له سيارة مفخخة قرب مدرسة أو روضة أطفال.

لكثرة ما رأيت الدم أصبحتَ مصَّاص دماء.

أشار إلي بإبهامه، خفت منه فالإبهام إشارة لموت:

- أنت أضعف وأصغر من أن تعرف، أنا سيد ولي إخوة مثلي أسياد، لكننا جميعا نطيع وليّ نعمتنا ولا نخالف له أمرا.

- وليّ نعمتكم هو" جليل" أليس كذلك؟

- نعم جليل.

يا ربي ما هذا الشبح المشكوك بإنسه، ماذا فعلتُ بنفسي وأدخلته داري سيدخل حتما من تلقاء نفسه، لم أدعه أصلا.

أعاد الإشارة إلي:

- لا تهذي، أعرف هذيانك وما يدور في خلدك، أعد لنا وجبة العشاء، لن أتأخر سأعود قريبا.

خرج متناهي الغرور بنفسه، فهو طويل القامة، مديدها، ممشوق القوام، ضامر البطن، جميل.. تُخرسني عيناه لمجرد النظر إليهما، فله نظره تخترق الأبدان والقلوب وتسحب الجلد من العظم.

رددتُ: - أجل، أجل يا صديقي، سأعد لنا وجبة شهية من اللحم والأرز، أعرفك تحب اللّحم.

اعتكفت إلى عزلتي في المطبخ أهيئ نفسي لقدوم "عزيز" وفتحت التلفاز على نشرة الأخبار.. اخترق أذني خبر إلقاء القبض على عصابة مسلحة بحوزتها متفجرات، عرض الشريط شبابا لا تتراوح أعمارهم الثمانية عشرة ورئيس عصابتهم الملتحي الذي يشارف على الأربعين.. واعترف أصغرهم سنا كيف أغواهم الرئيس بالدولارات في بداية الأمر، لكن بعد خضوعهم إليه راح يعطيهم على ذبح كل رأس مئة دولار فقط وأحيانا خمسين، وقال اضطررنا القبول لأننا إن خالفناه ستُقطع رؤوسنا.. يحتال علينا في البداية بالملاطفة، انتهازا لعوزنا وضيق اليد، يدخل علينا بالكلام المعسول حتى تستفحل قواه ونواياه وتتسع حيلته.

لا يحتال إلا الجبناء ولا يسرق إلا من هم على شاكلتهم.

تذكرت صديقي "عزيز" وأنا اسمع لهذا الشاب المسكين.

قمت بطهي الرز واللحم المقلي، وواصلت الاستماع، فجأة أعلن المذيع عن خبر عاجل وقطع باقي النشرة:

(اقتحمت جماعة مسلحة المصرف المركزي في عاصمة

"حاموت" وسرقت الخزينة كلها ثم رشقت بالرصاص كل موظفي المصرف حتى الحراس).

أخرسني الخبر وتسمرتُ في مكاني، نسيت الأكل على النار، ولم أنبته، لكن رائحة اللحم المحروق أعادتني إلى رشدي.

هذا أثبتْ دليل على بصمة أخرى.. بصمة تُطلق يد السارقين والقتلة، وتجعل البلاط فراشا لذوي الأطفال والزوجات المنتظرة راتب أول الشهر لتسديد أجرة السكن وشراء القوت.

(6)

عليه أن يصارحني هذا اليوم، لن اتركه يهرب بَصْمته المر أو الخروج دون استئذان، أريده أن يفصح لي فيما إذا هو عدو للبشر أم رفيق بهم.. وسيده "جليل" كما أخبرني هل يستأنس بالأرواح بهذه الوحشية وكأن الأمر لم يكن؟ لم تعش هذه المخلوقات وتتناسل وتعشق وتلد وتمارس كل مناحي الحياة، ليقدمها إليه "عزيز" شرابا، مقدسا يحجم عطشه.

لا بد أن يفصح عن سر الكأس المفاجئ الذي يجرعه كل كائن حي في رحلته المجهولة.

سأسأله منذ بدء الخليقة حتى اللحظة، أو أتجرأ وأطلب منه أن يأخذني إلى النهاية الكبرى.. قد تكون نهايته هو.. يحكي لي عن سر التلاشي والعدم.

دخل "عزيز" دون أن يطرق الباب، هذه عادته، عادة الأشباح والجن اختراق الحواجز، سأل عن وجبة العشاء فلم أجب العشاء محروق وعلي إحضار وجبة جاهزة من أي مطعم قريب.

صمتُ برهة ثم سألته:

- هل تريد ماء؟

أجاب حذرا من غموض إجابته:

- شكرا شربت قبل المجيء إليك.

ارتديت ملابسي وأحضرت نقودا تكفي لوجبتين،استأذنت منه وخرجت،عند عتبة الدار تذكرت فيما إذا يرغب بالعصائر أو المثلجات، لكنني فوجئت بصوته من بعيد:

- شكرا لا أريد مثلجات وعصائر.

يعرف ما في السرائر والنفوس.. أي نعم أعرف الأشباح تخطف مسرعة إلى الفكرة وتدركها قبل النطق والتطبيق.

طلبت وجبتين ووقفت عند باب المطعم منتظرا تحضير الطلب، عند الباب، راقبت وجوه المارة، بعضها تعلق الآمال على يوم غد، وبعضها دب فيها اليأس وترك صبغته رمادية عليها.. الأطفال كواكب الله على الأرض.. مرّت نسمة خفيفة أنعشت روحي، مر مخبول يولول ويشير بيديه إلى شيء مجهول، شخص ما يراه هو وحده ويحدثه. أكثر الأمور اعتدالا ذلك الرجل الرصين ذي السترة الزرقاء، الجالس في المطعم يأكل ببطء وعيناه تخترقان الزجاج، وتبحثان عن جسد ممشوق يمر.. نهض واقفا لدخول صبية غانج ومسح زبَد شفتيه.

أخذتُ الوجبتين وأقفلت راجعا الدار.

التفكير في العودة بعد النهاية يؤرقني، تلح علي فكرة معرفة قلب الشبح.

تناولنا الأكل بصمت كعادتنا حين نتقابل، يعرف جيدا أنني أحمل مئات الأسئلة، ولا يحاول ولو مرة واحدة الأخذ بيدي إليها.. يتحكم بعواطفه بشكل مخيف،يحاول إبعاد المجال المعرفي بيني وبينه، وأحاول اختراق ذلك وبكل قوة وجهد. أزحت مجال الصمت وبصدري تتعاظم أمور كثيرة:

- أخ" عزيز" مَن أنت؟

- أنا الشبح.

قالها مدار بسمة خفية في صدره.

- هل تعيش وحدك مع سيدك "جليل"؟

- لا.. كثيرون نحن، وكلنا في خدمته وطاعته.

- هل لكل واحد منكم عمل خاص؟ ما شكل الخدمة والطاعة؟

- لا تتدخل فيما لا يعنيك.

- بل يعنيني، وفي عمق ما أقصده وأريده.

خشن صوته وضجر، خشيت خروجه فالتزمت الصمت. وضع يده على يدي مغيرا نبرات صوته:

- صديقي "محمد" أنت لا تعلم ما يعلمه الأشباح، ولا تدرك فعلتهم،لأن الواحد منكم في "حاموت" محدود البصر والعقل.

- كيف؟ أفصح أكثر لعلني أقترب من طريقة فهمك للأمور؟

- قناعتنا تختلف عنكم، ورؤيتنا شديدة الاختلاف.. الليالي والأسحار والأصباح والأيام، كلها جسور تعبرون عليها في ضعف وفرح وحزن وسعادة وألم وتقارب وفراق.. قد تكونوا أنتم رسائل لآخرين يأتون بعدكم كما ورثتم رسائل من سبقوكم.

جلستُ منصتا بروحي وعقلي وقلبي وسمعي باذلا كل جهدي لترميز حديثه المبهم، محاولا قدر ما استطعت التشبث حتى في الفواصل، الصمت بين حديث وحديث.

وبعد وقت قصير بادرني بسؤال:

- ماذا تريد مني؟ وماذا بوسعي شرحه إليك؟ ما الذي تريدني إخبارك عنه؟

غابت عني أفكاري، رغم كثرتها، غاب عني الفرح والحزن وكل الثنائيات التي تعتمد عليها الحياة، وتعتبرها من ركائز الوجود.

شاهدتُ رجالا ووجوها، عيونا شجاعة وأخرى جبانة، أيدي متساقطة آثمة ومثلها بلا أصابع.. عَّدت قربي زهور مقطوعة وزهور تتبرعم.. هزائم وحروب، انتصارات وخسران، بنادق وثورات وأصوات عالية وخفوتة. أغنيات عتيقة للنصر، أبواق تنذر بالشؤم.

كثيرون لحظتها عدِّوا.. ولم يتجرأ لساني بتحريك نفسه، هل أخرسني" عزيز" كي لا أسال عن السلام الزائف الذي نرتجيه في شموع الكهنة والقديسين وعلماء الدين والعمائم التي أغرقتنا بالفضيلة.

محتالون أم حقيقيون هؤلاء؟

كثيرون، كثيرون خطفوا بمرآة عيني.. مصارعات الثيران البشرية.. الخنازير الآدمية، الاعتدال والانحطاط، كلمات كثيرة رجوت خروجها من بلعومي الذي اخشوشن فيه الصوت.

وقف "عزيز"مستغربا وضعي البائس، وأدركُ جيدا أن صرخة منه تحيلني بساطا.. لكنه رأف لحالي.. همَّ بالخروج لكنني شددته من ردائه الطويل راجيا الجلوس.

استجاب لرغبتي وجلس ناظرا :

- ما رأيتُ يوما بشرا يستحق الإشفاق عليه إلَّا ما عليه أنت

الآن.. هل تخاف مني؟ من غضبي؟ نحن أصدقاء الآن فلمَ الخوف؟

سل ما تريد، فلدي واجب سأقضيه ولابد الغياب عنك، وسأغيب بعده يوما أو يومين.

تمسكت أكثر ورجوته ألَّا يغيب عني، فقد زاد تعلقي بحديثه وصار جزءا مني:

- أرجوك.. سعادتي في بقائك معي، فأنا كما ترى أعيش وحيدا ولا أسرة لي، حتى القطط غادرت.

- لن أغيب طويلا.. لدي عمل هناك، واجتماع هام في دار سيدي "جليل"، سأعود حالما ننتهي منه.. لا تقلق سأبقى معك.

- وهل ستكلمني بصراحة لو سألتك أي سؤال؟

- نحن لا نعرف غيرها، المبالغة والكذب والتخفي بجلود أخرى ووجوه غير وجوهنا، هذا طبع أهل "حاموت" وليس طبعنا.

- تقصد طبع الأشباح؟

ضحك مستهزئا من كلمة أشباح، لف رداءه عليه واختفى بلمح البصر.

كان الوقتُ فجرا، ولم أرغب بالخروج من الدار، توقعت أنني حين آوي إلى فراشي ستأخذني غفوة، لكن النوم كان عصيا وشاقا، حاولت استطلاع بيوت "حاموت" في مخيلتي، ومَن لم يمسها موت الحرب السابقة.. ومن مسها وأذاقها مر العذاب.. في رحاب رحلتي اختلستُ عشق جارتنا "فريدة" لابن خالها وانتظارهما الطويل وتعلقهما ببعض منذ الطفولة.

على نحو مؤلم تذكرتُ خوفي عليهما فيما إذا لو مسهما الإبهام ولم يتذوقا لذة ثمرة هذا الحب العنيف، الذي عرفه وباركه كثيرون لعفته وطهارته بل شهد لهما كل من عرفهما بالنقاء.

المدينة بين ضجيج العربات والباعة المتجولين، بين نورها وليلها توحدتْ سابقا مع لون الحداد القاتم بعد حرب مدمرة أكلت الأخضر واليابس.. وبقي بعض من شباب يتوسلون عناق لحظاتهم لعلها تهبهم بعضا من أمل وراحة بال.. أغلب أهالي الشباب متوجسين من غدهم، من تحول الحياة إلى جهنم ثانية.

تساقطت الأفكار على قلبي كتساقط الثلج.. الاستذكار طعمه مر، حتى هواء الذكرى يمر بمرارة سخونة قاتمة.. أحنت الذكريات رأسها فوق صدري وجثمت عليه.

ابتسامة الحزن بكبرياء الصابر المستغفر ربه.. الألم الغض والمختفي وراء لحن جنائزي.. أقمار تخرج من كهوفها وتتواطأ مع الذكرى وقت قررت الذهاب لزيارة أختي.

مسحت روحي عفونة الموت.. وتواصلت مع رحلتي وقراري رؤيتها وزوجها.. مر زمن لم أتحدث معها، أو أرى أولادها الخمسة.

لم أكن مخطئا عندما عقدت العزم على ذلك، واستخرجت من حقيبتي نقودا خبأتها للعوز.. أخذتُ مائتي دينار لشراء حاجيات تحبها أختي وأبناؤها الشباب.

في الحافلة المتوجهة جنوبا سمعت الركاب يتهامسون بخوف عن أخبار جديدة.. عن موت محتوم جديد، وحرب قريبة جدا.

يتهامسون عن الانتصارات السابقة، وعن ميراثهم الجديد.

من بين الجميع صاح رجل ملتح أسمر اللون:

- يا إلهي ارحمنا، الحروب باتت شهيتها كبيرة لأولادنا، هل حُق علينا نحن أبناء (الخائبة) العزاء الدائم؟ نحن من يتحمل وزر تهوّر الكبار، وهوَج الزعماء المخصيين؟

لطفك يا رب، أهذه إشارات نهاية الدنيا؟ علينا فقط؟

أخرسته زوجته ووضعت يدها على فمه خشية مداهمة الجواسيس وأرباب القتل الجماعي.. لطم فمه بيده بكل قوته وأجابها:- ها.. خرسنا.

صمت قليلا ثم صاح ثانية:

- المفتاح ضاع.. ضاعت مفاتيح الأفواه.. فأصبحت متخمة بالصمت، وهذا سر البلاء الأكبر.

قدمت له زوجته قدح ماء كي يهدأ ويستكين، وعيناها تدوران بين الوجوه خائفة، تعد الدقائق للوصول.. وتتطلع إلى الأشجار من نافذة الحافلة، تعدها بصوت خافت.. كنت أسمع عدها وأشعر بالعزلة تخترق روحها.

بعد لحظات تلاقت عيوننا واخترقت حاجز الوقت، تفوهت دون سابق معرفة بيني وبينها:

- والله يا أخي.. راح لي ثلاثة شباب، ولم يبق غير واحد عمره الآن سبعة عشر عاما، وأخشى عليه، إن راح سأخسر الاثنين، ابني وزوجي، فقد أصيب بجلطة دماغية شلت نصفه الأيمن، ولم يقم من مرضه إلا بشق الأنفس... ثم همست:

- هل سمعت عن حرب "حاموت" الجديدة؟ ستتجه جنوبا هذه المرة... استدركت خطأها:

- مجنون مَن يفتح فمه.

ثم أكل الصمت بعدها جميع الأفواه.

بتُ خائفا جدا على أختي. مهشم الأضلاع والفكر والقلب طرقت بابها في يوم ذابل كما هو قلبي الآن.. مترعا بالوجل والنار، القلق من قلب الظلمة. حاولت مرة أخرى طرق الباب فالوقت ما يزال في عتمته.. سمعت صوتا نازلا من سطح المنزل:

- نعم، سأفتح الباب، من أنت؟

حين سمعت صوتي صدر منها صوت مثل غناء الأمهات، وأسرعت فرحة تنزل درجات السلَّم حافية القدمين، سمعتُ صوت قدميها وكأنهما تصفقان.

مع بصيص الضوء، شاهدت إبهاما واضحا في زاوية الباب، لم أعرف وقتها أنه علامة مجنونة.. أو الاقتراب من ولادة موت يثأر لحياة رافعة الدعاء لبقائها وشفائها من درن العقاب.

احتضنتني بقوة والدموع تنهمر من عينيها.. قبلتها على جبينها وعيني على باقي الدور القريبة، شاهدت ظلالا تمرق مسرعة أو أشباحا تخطو مسرعة نحو باقي الدور وتبصم.. لم أستطع الدخول، تحججت بدموعي كي أطيل النظر، وأختي تدعو أولادها للنهوض من نومهم بأعلى صوتها:

- أفيقوا.. خالكم وصل هيا نادوا أباكم معكم، انزلوا من السطح.

التصقنا بالحب والقبل ونداء الإخاء والفطور الذي أعدته أختي والفرحة تملأ وجهها وقلبها.

كم كنتُ غبيا ولم أفقه سر الأباهيم واختراقها لأحلامنا وهي في المهد.

بعد احتساء الشاي طلبتُ من زوج أختي التجوال في المدينة.

عند بداية العتبة لمحتُ شخصا يمر مسرعا، لم أستوضح ملامحه، كان مثل شجرة جرداء في خريف صامت.. والمدينة بدت كأنها تبحر في قارب الليل والبؤس والانتظار.

بقيت معهم أسبوعا كاملا، فقد تعطلت المواصلات، ومُنع السير، كما مُنع الكلام والاستفسار عن السبب.

لا حاجة ل "حاموت" لمعرفة السبب، الأسباب تُقدَّر عليهم من زعمائهم المغرورين، الضعفاء المهزومين في دواخلهم والمهيمنين بسوط الجلادين، تعبيراً عن خوفهم، الهاربين منه برؤية الدم.

ربما تواطأوا مع الأشباح واتفقوا على خلق أحداث الفجيعة.. ومضوا في خوائهم الشاحب نحو زهق الأرواح، مبرهنين عن جنونهم كوثيقة دامغة لنقص فيه.

الناقصون يسعون دائما لعقاب الآخر وإسقاط إنسانيته وأحقيته فيه.

متحررون بذلك من أشباح دواخلهم وشياطينها الماصَّة للدماء.

شرَهُ العتمة في قلوبهم إلى مجون الموت.. ديمومتهم الصدئة تقتات على أرياق الآخرين.... شباب وشيب، أطفال ونساء.

نفضتُ عني خلل الأفكار، جراح مخفية في الصدور

نستخرجها على حين غرّة، ونُبقي أعيننا شاخصة في السقوف، تستوضح ثواني الخسران، وتسعى مثقلة لاقتناص غفوة عابرة.

المحتوم يجري وإن تغافلنا حدوثه يزيح النقاب ويجري على مهله.. سنة أخرى سنين أخر.. لا يهم، فما كان كان، وما سيكون في طرف رمش سيكون.

(7)

بعد مضي أسبوع أحتفل العالم السفلي بأبنائنا الشباب الذين أصبحوا وليمة طازجة لهم وللدود الضليع بصناعة خمر معتق من الهياكل العظمية واللحوم المتفسخة. تألق مستديم لحضور وغياب.

هكذا عدتُ لداري مهزوما بالفقد وصورة وجه أختي ترافقني كإبر توخز في بدني كله.

لعبة اليانصيب.. مددت يدي لشرائها بعد نزولي من الحافلة لأقدمها هدية لزوج أخت ألفها متأملا نصيبا غير جائع، نصيب يقيه عوزه وجوع المستقبل، لكن عطل مفاجئ استحوذ على أمانيه.

في استغرابي وانشغالي برؤية البصمات لم أسلمها له.. فالنصيب أجزل عليه العطاء ورمى شِباك الموت على أسرته.

الموت لا يُخطئ هدفه إطلاقا، حين يكون فارغ اليد يملأها بطرفة رمش ولا يتوانى عن ذلك.

ها أنا ذا أبصرها بطاقة غير يانصيب، أمزّقها وأرميها نفاية محال أصدر حكمه علينا بتتويج ملوك الظلام.

كل شيء في الغرفة يحدق بي حتى الملاءات تواصل التحديق وتنساب نظراتها مثل ماء جائع.

كيف يجوع الماء؟ وكيف يعطش؟ هذا سرّ آخر عليّ اكتشافه وسط العطش والجوع الجماعي الذي لفَّ أذرعه على "حاموت".

الحياة في "حاموت" أصبحت حبلا منصوبا لرقابنا، وزعاف أفاع. إذا كان لنا عدوّ فـ "حاموت" هي عدونا الأكبر؛ عدو يدعونا إلى هدم المبادئ وتسلّط القوي على الضعيف، الغني على الفقير، المخادع على الصادق، اللعنة على التسامح.

هذه "حاموت" المشهد الأشد قبحا الذي لا يخضع إلا للمظالم.. فوزعها بالتساوي، على قدر إرهاق الناس وتحملهم في الانتقام من بعضهم.. فما من حق تدونه الشريعة ويدونه القانون، غير قانون الخطأ النبيل.. والحق للأنبل في تحقيق الكره البار، والأفضل في تحقيق الصواب للمعان القتل وبريقه، تكفيرا عن الخطايا وجدب الأخلاق، حتى بات الكاذب صديق المحب، وصديق نفسه، والظالم ليس بوسعه نسيان طالب حق، فيلقي عليه أحجارا شتى، وقنابل ومفخخات لتحقيق مآربه..

بتنا نحترس من "حاموت".. الأرض التي نقف عليها نهابها احترازا للموت.. تكفير عن ذنب خوفنا منها.. سلطت علينا أحقر خلق الله، أوجدت لهم عدلهم الخاص، وقانونهم الخاص.

وسلطت العتاة على بعضهم ليأكل بعضهم بعضا.

الكراسي ممتلئة قذارة وسموما، ليس بينها وبين أصحابها أية علاقة للشرف والنزاهة.. بات شبح الجريمة يخيم على الجميع،وصار الحديث عن الشبح الأصلي مجرد كلمة تُقال في المناسبات العادية..

لكنني على اتصال دائم معه، يحضر إلى داري وقتما يشاء هو لا حينما أطلبه.. أحيانا يكون مكفهر الملامح غاضبا، وأحيانا يعتلى محيَّاه الهدوء.

في هدوء ليلة مقمرة دخل طالبا ماءا باردا، جلس في ركن قصي من غرفة نومي مثقلا بالهموم، ثم رفع بصره إلي:

- الناس في "حاموت صاروا أفاعي،همهم الوحيد المادة وكيفية الوصول إليها، ونظامهم صار الغاية تبرر الوسيلة.

هؤلاء الرجال تشمئز منهم نفسي، أمهلهم لبعض الوقت لعلهم يستفيقوا إلى رشدهم، لكن لا فائدة.. ، أتمنى لهم المرض والجنون

إنما المرض يخاف منهم على ما يبدو لي، فشرورهم أقوى منه.

استجمعتُ بعض قوة، فلطالما شعرت بضعف أمام هيبته:

- لكنك تسلط المرض أيضا على الصالحين والضعفاء الذين لا مال لهم للعلاج.

- هؤلاء قُدر عليهم ذلك، وقدرهم ليس عقابا عن جرم أو سرقة.

قلت في ذاتي حانت فرصتي لأسأله عن مواقفه الخاصة:

- نحن أصدقاء أليس كذلك؟

أجابني مستغربا:

- وهل في ذلك شك يا صديقي؟

- إذاً.. احكِ لي عن ساعات ضعفك وقوتك، ألمك وفرحك،أريد معرفتك جيدا.

- من أين تريدني أن ابدأ يا صديقي؟

قلت له سأترك إليك حرية الاختيار.. لكن يهمُّني جدا الحديث عن ساعة ضعفك وتمردك على سيدك.. ثم.. نسيت أسالك عن الاجتماع وغيابك عشرة أيام عني..

قال:

- العالم مليء بالدعوات وقد وجهت لنا دعوة لوليمة ولابدّ الحضور تلبية للسيد" جليل"... مكثنا أياما هناك، وحين رجعنا قمنا بتسوية بعض الأمور المؤجلة.

أتدري يا " محمد" "حاموت" مكتظة بالدخلاء المفترسين، أفسدوا الحياة والجمال فيها، ولابد أن يخرجوا منها.

سألته: - كيف؟

رد علي وهو مسترسلا في حديثه: - دع الكيف هذه حتى يحين وقتها،والآن قل لي هل نبدأ الآن؟

تربَّعتُ أرضا وكلي شغفا وحبا بالمعرفة:

- نعم سيدي، قل ما يحلو لك.

- العالم يدعوني إلى أخذهم لحياتهم الأبدية، ولا فرق عندي بين هذا وذاك إلا بطريقة الوصول.. أنا جندي كما هو المحارب في المعركة، بمعنى أنني عبد مأمور، ولكثرة حديث الناس عني وذمهم لي وخوفهم الشديد من حضوري، فكرت بخلق طريقة تجعلهم ينسوني ساعة المعركة، ولا يذكرون اسمي على ألسنتهم.. شفقة بهم وبخوفهم مني.

لو ظهرتُ لهم بشكلي الحقيقي لماتوا جميعا في ثانية.. وأنت أيضا، ظهرت أمامك بشكل رجل رأفة بك.

الحالات كثيرة، قديمها وحديثها، فحياتي لا اطمئنان فيها ولا هدوء ولا راحة بال.. الجميع منكم ينام وترقد له عين ويستريح ثانية.. إلا أنا في دوامة، مرورا بكل الثواني الكونية.. الواجب في العمل يحتم علي ذلك.. وعلينا جميعا.

استغربت من كلمة علينا:

- عليكم؟ كم عددكم؟

- كثير.. كثيرون نحن على هذا الوجه من الطاعة العمياء لسيدنا، وإن ظفرنا برضاه يعني بقاؤنا واستمرارنا قربه.. بقاؤنا محتوم على رضاه، ورضاه بشبعه.. ولائمه لا تكف ولا تهدأ على مر الثواني، لذا تجدنا مسرعين إلى تحقيق ذلك.

حكومتنا مختلفة عن حكومتكم في "حاموت" أنتم في كل حين يغير الرجل فيكم قناعاته، الآن يكون ذا مبدأ.. وبعد يومين وكيفما تقتضي المصلحة يكون، ويستبدل مبادئه بالمستجد على الساحة.

نحن أبناء جلدة واحدة، وطاعة واحدة ومبدأ واحد.. يا صديقي الأعالي لا تصلها الحشرات.

- مَن الحشرات؟ هل تصفنا نحن البشر بحشرات؟

ضحك بأعلى صوته حتى سمعت جدران الغرفة تطقطق كما أضلاع مهروسة.

- أنت قاسي القلب، لم أر مثلك في حياتي.

- بل أنا قوي لا أضعف حتى مع أقرب صديق وحبيب إلي.. أخترقه وأدخل جسده.. لذا كلفني سيدي بهذه المهمة الكبيرة التي عجز أمامها رفاقي كلهم أو ضعفوا ولانوا.

- إذاً . . لم تبكِ يوما لمنظر طفلة بريئة أو طفل معاق،أو.

قاطعني:

- الأطفال مصيبتي الكبرى. . أجسادهم الطرية خسارتي أمام نفسي، وجوههم تنغمس في فؤادي كانغماس الشعرة بالعجين، وعلي استخراجها استجابة للواجب.

لكن ما ترونه أنتم شرا لهم نراه خيرا لهم. . . ومن منطلق الخير تذوب أجسادهم الليّنة بين أصابعي طائعة.

لحسن طالعي أنني قوي الليلة ومستعد لمواجهته:

- إنه الخواء الشيطاني سيد "عزيز" أنت واسع الحيلة والدهاء، كثير التبرير لتعلِّب قناعاتك بوهم تصدقه أنت لتستمر في جبروتك. . . أية قوة تتصنَّعها وأنت تتأمل المصلوبين ظلما والمقطوعة رقابهم؟

هل سيبقى ساعتها في الهواء الطلق شياطين أخرى تنعم بالمنظر وتستلذ؟

لا أدري أي كائن أنت. . ما أنت سوى عبد، وعبد راض بوضعه ومستكين وإن طغت أصابعك وخنقت الحياة، تبقى العبد.

كنت قاصدا استفزازه لأقوده إلى الحديث، ليكف عن تظاهره بالقوة والجبروت. . رأيته يسبح بالعرق واحمرت وجنتاه، فبادرت إلى سؤاله:

- هل الشياطين والأشباح تعرق سيدي؟

كم مرة تعرَّق بدنك، وتألم ضميرك، وضعفتَ وانهار قلبك؟ كم أخبرني؟

بدرت منه نصف ابتسامة تدعو إلى الاستهزاء مني:

- الأرقام مجرد أرقام، كما الأعداد، ثلاثة، عشرة، أسابيع، سنوات.. هي مجرد دخان يمر، فأطرده عني بإشارة إصبع، وقد لا أكلف أصابعي، نفخة واحدة وينتهي كل شيء.

- يا لغرورك، أنت فعلا مغرور كبير.. بل مغرور ضائع وعبد... أنا أشفق عليك وأوصيك بنيل حريتك من عبوديتها.. كن نفسك ولو مرة واحدة واخرج من سجنك.. ثم اخبر سيدك عن غايتك.

هل بوسعك أن تكون قاضيا على أفعالك؟

هل تقدر على الانتقام مما يوكل إليك؟

أين أنت من كل هذا؟

شياطينك أو أشباحك.. عليهم الاختيار أيضا... ثم أنا لا أصدقك فيما تقول.. من يدري أين تذهب وتدعي أنك مدعو لانعقاد جلسة مع "جليل".. قد يكون "جليل" من صنع مخاوفك وافتراضاتك لمعرفة الأسرار العظمى وتسيدك عليها.

كلما اعتليتَ وكبرتَ، كلما ازددنا خوفا منك في "حاموت" ربما الناس فيها هم اختاروا اسمك ليعرفوا ماهيتك.. مَن يدري.. فالأمر محير جدا.. أنت غابة كبيرة سيأتي يوما وتشتعل وتقضي على نفسك بنفسك.

تحسَّر بعمق.. تنهد أعمق ووقف منتصبا:

- نعم.. فعلا في النهاية أنا من يقضي على نفسه.. أنا أقتل نفسي ليبقى.

مَن تقصد؟

- لا عليك.. سأقودك يوما إلى هناك، أخترق الأزمان لأريك هذه الساعة وأعود بك.

وغدا سنبدأ الحديث عن أيامي هل يرضيك هذا؟

ابتسمتُ مؤكدا وشعرتُ أنني بلغتُ غايتي.

ثم توسلت إليه أن يأخذني إلى ساعتي ويريني شكلها.

تركني أتوغل في عزلتي وخرج ثم استدرك قائلا:

- لن أغيب.

انقضى يوم جميل معه، جعلته يصير أكثر قربا مني.. تابعتُ قطرات ندى أرهقها طلوع الشمس فساحت من طرف ورقة خضراء، ثم تلتها قطرة أخرى.. حلَّقت العصافير على الأغصان العالية لشجرة التوت،وتحول الأطفال إلى عصافير جميلة تعلب في الشارع.. انتشرت البراءة عطرا رائعا يُسقط خضرته على أشجار غير مورقة، فيزدها التحاما بنسغها تواصلا مع الحياة.

(8)

يخاف الناس ذكر الشبح، لذلك ينظفون أفكارهم منه وينثرون عطر أعذار باتت هي الأخرى مجهولة إليهم.

يتدفق أبناء "حاموت" مثل نهر خائف الأنفاس في جريانه حذراً، ذلك ما دأب عليه حتى الأطفال.. مع هذا تندلع في عروقهم الطفولة وتتآلف مع يوم مشمس.

بشهادة ميلادي ذكر اسم أب لم أره، عانيتُ كثيرا لأعرف كيف يلعب الأطفال بحضن آبائهم ويمرحون..، تحوم ذكرى أمي فتقلني الذكرى إلى عنائها الطويل في تربيتي وتوفير ما يسد رمق حياة متواضعة.

عند تلك الأبواب وقفتُ معها طويلا، نتعثر في آمالنا ونحلم.. نحلم بما لا يحق لنا الحلم فيه أو الوصول إليه ولو بفكرة عابرة.

كل الأمور أصبحت مستحيلة.

السجانون يتزايد عددهم يوما بعد يوم "وحاموت" بحر هائج، لا سفينة ولا عاصم سوى تركها والتوجه إلى مجهول آخر.

تعددت الأشكال وكثرت والنتيجة واحدة، حتى بات اسم الجميع "غريب" غريب بين أحضان "حاموت" غريب خارجها ومعها وبها.. واتسعت الرقعة لتصبح لغة طازجة لنشرات الأخبار.

أي مهرِّب قصدوه حين ضنكت السفينة بهم، هاتيك الأرواح

المتدرعة بموج البحر الهائج.. متوقعين أنهم سيجدون نبضا في ملح البحر.

أجزمُ أن كل من قرأ الخبر سالت روحه دمعا، فالمزيد من التهجير يعني المزيد من وحشية اللّحظة الموعودة لأبناء "حاموت".

وقع خبر غرقى السفينة مثل الصاعقة على قلبي، وتخيلت تلك الأعين حين ودعت الأعزة والأحباب، واستنشقت آخر عطر للوطن... شعرت بأنفاسهم الأخيرة تخترق أضلعي.. والبحر يبتلع مزيدا من شباب "حاموت".

ما عاد بمقدوري متابعة التلفاز، ففي كل حين يلقي علينا أضواءه ليكشف لي صورة صديق أو قريب رقد في ثمة شبر وثمة حادثة، ودبيب أقدام ضالة في بقعة من بقع الاغتراب.

أدور كل يوم في طرقات مهملة.. وأخرى مكتظة، مستكشفا العلاقة بين البشر.

أعماقهم مضطربة بوقت صارت أيامه مثل جرس يرن.

كيف تحولت" حاموت "إلى جرس وهي شرايين الزرقة والخضرة؟

ولا بديل للبحر غير ابتلاع أبناءها ليصبحوا وليمة أسماك القرش.

مكثنا في أرض احتوت النقيضين، من أقصاها إلى أقصاها صارت مدنا من صفيح، نسكن الصفيح في القيظ وفي شتاء.

لا أدري هل تتزوج الأشباح وتلد وتحتفل بأعراسها وتكاثرها أم هي من وهمنا نحن؟

نحن شياطين الحاضر نحتفل في مناحي الحياة بألوانها، فرحها وحزنها، لا نشبههم يقينا، إنما حين يعود الليلة سوف أتأكد من الفكرة التي طرأت لي الآن.

لم يُشع في المدينة عن شبح طفل أو امرأة، كلهم رجال إذاً!

نحاول تجميل الأحلام في "حاموت" إنما هي لا تريد، فتلهو بسحب الحياة يوما بعد يوم.. وتُلهب يقيننا بربيع مزعوم.

حَلمنا بألف فرحة وفرحة تدخل قلوبنا.. فتنفصل عنا مثل كائن ينفصل عن نفسه.

الكائن منا يحمل في داخله اثنين.. أو عشرة يتخاصمون فيتضاعف العدد لئلا نبقى واحدا.

يتضاعف الألم والعذاب ولا تتضاعف البهجة.. يستفحل الغضب ولا يتسلل إلينا هدوء عذب.

استبد الناس في "حاموت" وعاثوا في نفوسهم قبل العبث بالآخرين.. وظلوا ناقصين يحتاجون شخصا ينحنون إليه، ينحنون إلى طغيانه إجلالا.

انحناء غير راض وراض ناشدين القوة المتفوقة عليهم فلجأوا إلى علماء الدين يتعلمون منهم خوفا جديدا وعبودية لذيذة.

القهر الجماعي من حكامهم أرغمهم لانحناء مختلف، لماذا تنحني رقابهم ويهتفون في الشوارع قاصدين إرادة حرة؟

حرية وعبد؟ كيف يفسرون إعادة تأهيل أفكارهم المقنَّعة؟

كان هذا يثير دهشتي خاصة لمناقشة مثقفي "حاموت" الذين تسممت أفكارهم، أو بالأحرى صاروا يؤمنون بالأشباح المنتشرة

في "حاموت" إيمانا مُطلقا وكأنه من المسلمات المقدسة، أنها من صنع خوفهم.

استأنسوا الخوف والعبودية فابتدعوا وسائل شاذة تقربهم إلى كبير في نفوسهم واهتدوا إلى الغيبيات التي شاع إثرها السحر والشعوذة، والزحف على الركب تقربا إلى أضرحة الأولياء طالبين تحقيق أمانيهم في عبودية صمَّاء.

حامت الشبهات والشكوك حول الأشباح، وأثير الجدل في حقيقتهم والشك فيهم.

من طبيعة البشر أنهم يحتاجون إلى كبير ينهض بهم من كبواتهم، ويطلبون القوي ليتسترون على ضعفهم. . لهذا صاروا يتخيلون أشكالا كثيرة للأشباح حتى نعتهم كثيرون بالشياطين.

إنما صديقي "عزيز" لا يكترث للغوهم، ولا يهتم للتشويش الذي ينشرونه بينهم ليفهموا. . . ولن يفهموا. . . لأنهم لم يفهموا بعضهم فكيف يفهمون الأشباح!

لم يصل الجار إلى عمق جاره، فكيف يصل إلى عمق "عزيز"؟

لم يغب " عزيز" طويلا لكن اللحظات بالنسبة إلي صارت دهرا.

عند دخوله شممت بردائه رائحة دم دافئ. . وفيما أنا صاغ إلى أنفاسه اللاهثة تحسر عميقا ونفث هواء كاد يضربني في الحائط لقوته.

- ما بك "عزيز"؟

اعتدل في جلسته:

- كان المنظر مؤلما جدا... جدا، خمسة أطفال كانوا ذاهبين إلى مدارسهم، فصاروا طُعما لذوي الضمائر المتعفنة وطُعما للنار.

تمزقت أجسادهم إربا بسبب دراجة مركونة إلى جانب الشارع ملغمة.

أية رجولة رعناء فعلت ذلك، يا للهول!

- هل أنت خائف "عزيز"؟

- لا.. أنا لا أعرف الخوف.. إنما سقطت بعض أصابع طرية في حضني وأنا أعبر إلى الطريق الآخر.

- أين وضعت بصمتك إذا؟

- التهمتها النار أليس كذلك؟

- دعك من هذا، سنقوم في رحلة معا أغمض عينيك.

أغمضتُ عينيَّ مستسلما إلى صوته، عصفت بجسدي عاصفة هزته هزا ودوامة هواء وأصوات لم أتعرف عليها من قبل، حاولتُ فتح إحدى عينيّا، لكن منظر الدوامة وهي تلف بين الأشجار والغابات الخضر أخافني، فرجعت أخبئ نظري بين أجفان مطبقة.

سمعته يقول افتح عينيك.. فتحتهما على آخرهما مستغربا:

- أين نحن يا "عزيز"؟

قال: لا تسأل فقط استمع لترى مَن أنتم.

غابة كثيفة ولا أحد فيها غير شابين، يتحدثان إلى بعضهما،

أحدهم بان عليه الورع وبصمت ملامحه التقوى بالهدوء، والآخر تجسدت فيه معالم الشر كلها.

كان الشرير يضرب أخاه ويتخاصم معه، تغلَّب عليه الحقد والشر وأخوه لا يؤذيه، بل يهون عليه شره:

- لا يأخذك وهم البقاء يا أخي، انتصر على نفسك واقتل الشر فيها.

هذا ما قاله الأخ النبيل لأخيه وطلب منه ألَّا يخضع لهوى نفسه وشرها، لكنه لم يفعل.. أغوته نفسه وأحبك خيوط الضغائن على أخيه، فدفعه من أعلى مرتفع، حاول أخوه التعلق بأغصان شجرة كبيرة متفاديا السقوط، لكنه دفعه مرة أخرى حتى سقط أرضا بلا حركة.

عظم في نفسه الخوف، كيف سيقابل أباه وماذا سيقول له، هز أخاه بقوة لعله يستفيق، إنما الموت كان أقوى منه.. أخذ يجره إلى أماكن شتى حائرا بفعلته، بين الأشجار المثمرة واليابسة، ضل السبيل، ودب إلى قلبه وروحه الندم.. كلَّت حيلته، ماذا يفعل بجثة أخيه، فهو لم يعرف الموت بعد، ولم يتعرف على طقوسه، في إثناء ذلك هبط من السماء غراب يحمل في منقاره جثة غراب ميت.. عمل حفرة في الأرض وراح يكيل التراب على الغراب الميت حتى أخفاه.

كانت الأصوات المنذرة تحوم حوله، ربما صحا ضميره وجيَّش هذه الأصوات لتبين له فعلته.. أخذ الغراب قدوة له، فقام بمثل ما قام به، حفر حفرة لأخيه وهال عليه التراب.

كنتُ مع عزيز، نركن جانب إحدى الأشجار الكبيرة، فجأة

داهمتنا ريح هزت المكان هزا، فأغمضت عيني خشية أن أصاب بالعمى، باغتنا هدوء وصمت، فتحت عينيَّ مثل وليد يتعرف توا على الحياة.. وإذا بي جالس في داري و"عزيز" يتطلع بكل هدوئه المعهود إلى وجهي المصفر.

- أين كنا، ومَن هذين الأخوين؟

- هما أصلكم، خيره وشره.

- نقلتك إلى الشر الكوني،جذركم الأصلي، فلا تستغرب ما أنتم عليه الآن.

راودتني فكرة بَصمته:

- هل تركت بصمتك هناك؟ ثم أين؟

- أي نعم، تركتها في روح القاتل .

- وما ذنب الأخ المقتول؟

- هي الميتة الفضلى.

- الفضلى؟

- نعم الفضلى.. وهي الحد اللائق بالفوز.

- أي فوز، أي حد لائق.. أنت تهذي أيها الشبح.. هل الميتة عندك مراتب أيضا؟ ويلي منك ومن سلوكك الغريب.

قال:

- وهناك الحد اللائق من الحماقة بالحمقى، فيموتون بيد مَن هم أشد حمقا منهم. الدم لا يُغسَل إلَّا بالدم.

- هذا يعني أننا كفَّارة لذنب من سبقونا؟ لكنه الظلم بعينه!

هل نحن الأكثر ملائمة لوليمة التكفير عن ذنوب لم نقترفها؟

ليتصارع المصارعون ويقتلون بعضا، إنما الأبرياء ما ذنبهم؟

ما الذي سيكون عليه الجيل القادم وقد لطخ الذهب الأسود كل شيء ولوث الحياة؟

- اهدأ يا أخي الإنسي.. سيأتي حكام من علياء عروشهم يصدروا أوامر الجوع والموت عوزاً وحراً وتشريداً.

يعني لن يذكر أي مخلوق أنهم وليمة تكفيرية عن ذنوب غيرهم، واضح أم أوضح أكثر؟

- برمتُ شفتي استنكارا.. نعم واضح.. فنحن من الأقاصي حتى الأقاصي في مصيدة.

(9)

لم أره يوما عاريا، لكنه يُشعرني بالعري قربه، قوته وثقته بالنفس يقوداني إلى ذلك.. وحين يُشير إلي ينتابني شعور بأن الماء سيتدفق من أصابعه.. على وجه الدقة لا أعرف بالضبط كيف يصير عليه شكلي.. جاء تلبية لدعوتي المتكررة إليه .

صداقة غريبة بين إنسان وشبح.. لكن الأمر مختلف الآن.. هو تعلق بي وأنا أحببته.

صرنا لا نفارق بعضا، لو تأخر دقيقة عن موعده أصاب بالجنون، علما أنه ملتزم بالوعد وبالوقت بدقة مذهلة... نحن أبناء "حاموت" لا نحترم الوقت، والوعد، الجن أكثر مصداقية منا وأوفى وعدا واحتراما لأنفسهم.

تعلمتُ منه الكثير، أوضح أمورا كانت غائبة عن عيني، أو لا تُصدقها مخيلتي.

حينما قلت ذات يوم:

- أنني أقسم بعلاقتنا القوية، لن أخذلك بعد اليوم.. ضحك.. صمتَ وأعاد الكرات بين الصمت والضحك:

- لا تُقسم أرجوك.. زمنكم زمن القسم الكاذب.. تتخلون عنه بثوان، وتُقسمون بالدين والله والشرف، وبتطليق نساءكم، الرجل فيكم لا يملك الرجولة.

لم أجادله لأنه وضع يده على ماهيتنا الجديدة، نحن نُدبة على وجه الإنسانية.. أبناء "حاموت" بقعة سوداء بخد الجمال.

أفاق ذات ليلة من نومه اليقظ، نظر إلى نفسه في مرآة على الحائط.. ،دمدم متذمرا وأقفل راجعا إلى السرير، سألته عن وجومه:

- ما بال صديقي الحميم، هل وجد في المرآة شيئا أزعجه؟

- نعم.. ما انعكس فيها ليس وجهي، لا أستطيع تقبل شكل البشر.. ماذا سيقول أصدقائي هناك لو رأوني الآن.. سيهزأون مني حتما.

- وما شكل أصدقاءك حبيبي "عزيز"؟

- ماذا حدث لي، لماذا أنصاعُ إلى "محمد" لدرجة الحب الشديد؟

هذا ما ردده مع نفسه، فجعلني أخاف أن يتركني في أول الطريق من المعرفة.. لم أتوصل بعد إلى حالة ضعفه ونفوره من المسؤولية الموكلة إليه.. مازال مبهما إلي..

هو كتوم ويتكلم بالمثقال.

سأقفز إلى صهوته ذات يوما وأرجوه الانطلاق بي إلى حيث يشاء هو.. أترك له حرية المكان والزمان.. فالواضح أن بَصمته متوغلة إلى الخليقة الأولى.

لكن الذي يدور في خلدي الآن هل كل هذا افتراض بشري كما يدعيه بعض الفلاسفة عن خوف الإنسان وحاجته لكبير وقوي يداري ضعفه وعجزه تجاه فهم الطبيعة والخلق؟

لا أظن.. فالرجل الشبح يعيش معي، يأكل ويشرب وينام ويجادل ويهزأ ويضحك عاليا.. يعني أنه حقيقة وواقع لا مهرب منه.

الطبيعة افتراض.. غير ممكن.. الافتراضيون لا يستطيعون خلق الشبح الماثل أمامي.. إنه يستمع ويعرف ما يدور في خلدي الآن، ويبتسم في سره.. نعم،هذا واضح جداً لأنه يداري ابتسامة خفيفة ويخفيها باحتساء حساء الفطر والبطاطس الذي أعددته له قبل قليل، أحبَّه كثيرا، فصار يطلبه مني دائما.

الأيام تمر مسرعة وأنا مصغ إليه وإلى أدق التفاصيل في حديثه، عن الأوامر، وسرعة تنفيذها والخضوع إليها.. كثيرا ما أجده غير راض إطلاقا، لأنه يذكرها على مضض وشعور بالمسؤولية تجاه ضميره وقلبه ومشاعره.

توصلت إلى أنه يرفض في ذاته هذه الصفة، ويرجو لو خلصه سيده منها.. اختياره كونه الأقوى والأفضل لمهمته، جعلت منه مذموما كل ثانية من كل المخلوقات.

أفرغ أناء الحساء كله.. ونظر إلي مستفسرا:

- محمد.. ألم تشتري الصحيفة اليوم؟

- نعم سيدي اشتريتها، لكنها تُنذر عن شؤم غير معروف لحد الآن، لهذا تراني مبحلق في التلفاز، "فحاموت" غزاها الفئران وأخشى عليها من تفشي الطاعون.

يا للعار، غزو فئران! ويحكِ "حاموت" لهذا الحد رخصتْ نفسكِ عليكِ بحيث تسمحين للفئران أن يعيثوا بك فسادا؟

مرت أمامي مرآة الشؤم.. وغربان تعبر، والأخبار تعلن عن سقوط صنم وارتقاء أصنام أخرى لكرسي العهد الجديد.

يغرب مستنقع ويحل مستنقع غيره يُدمي أرض "حاموت" ويملؤها عدلا دمويا.. سيدة الكبرياء والماء يغتصبها من لا ماء في وجهه ولا ذرة شرف في جبينه.

الذين خضعوا لظلام أسيادهم السابقين وبصموا لهم بالعشرة، تسيدوا براكينهم بأعين مغمضة للسادة الكبار، سادة الضلال وطمر الهوية.

أرجعوا بجهلهم ورجعيتهم المتخلفة "حاموت" إلى العصر الحجري، إلى عصر الغاب والقِبلة الخطأ حتى تحول كل شيء إلى زنا مقدس.

حللوا وحرموا لأسباب وبدون أسباب حصاد الرقاب والترهيب يبدو صفة كل من يرنو إلى تخويف الناس كما السابق للتغطية على قبحهم وضعفهم.

أمس.. كان القتل جماعيا، طبقيا وطائفيا، واليوم أصبح القتيل عاصيا وملحدا، وعليهم إشهار شريعة الحرق على الملحدين.. صاروا أصحاب ثأر الله.. لا أدري مم يثأر الله باسمهم.. من البسطاء والفقراء والضعفاء؟

مخابرات الأسياد الجدد تفننت بأشكال الخاضعين المدفوعة أجورهم عمارات وأرصدة في المصارف الدولية.. والقصور الفارهة المخصصة لمجونهم.. لذا تعمموا بالعمة كي يصبح عريهم وشذوذهم مقدسا، وعلى أهل " حاموت " الولاء والطاعة.

صار الفاسد سيدا، والمعتوه إماما، والحاقد مرشدا، والقاتل ورعا.. والشاذ رئيسا.

التفَّ الأتباع المأجورين كل حسب كتلته وتخلف المنتسَب إليه، حتى تساقط الناس عريا وجوعا.

التهمت الشوارع أبناءها الحفاة والكادحين والنسوة الضائعات، وصارت الأرض حفرا مترعة بالثقوب والفساد، تفننوا

بصنعه وشكله، ورائحته التي تشبه رائحة فم مخمور تناول البصل والثوم والكأس الطافحة برائحة مستنقع مهجور.

الراحلون سابقا والمهجرون عادوا إلى "حاموت" متوهمين وطنا غير خاضع للمساومة.. تفاجأوا بمساومات لا حصر لها ولا عدد.

وجدوا الوطن منفى.. استصعبوا منفاهم الأصل، لذا غادروا ثانية إلى منفاهم الفرع.

بُعثوا من هناك، من البلدان التي آوتهم سابقا وجندتهم لمفاهيمها وتعاليمها.. تعددت أمكنة الـ "هناك" كما تعدد عدد الذين بُعثوا وجُندوا لينشروا العبث.

كانوا جميعا على استعداد للتشكل حسب مقتضيات الأوامر والواقع المرسوم إليهم فالحليق التحى، السافرة تحجبت، السافر عمّم رأسه ليهيئ له أتباعا مثله، أبناء الشوارع والزناة والمسجونين سابقا بتهمة القتل السرقة والعار، بدع لا مثيل لها لنيل استحقاقهم من ديمقراطية بائسة.

حتى صارت "حاموت" زريبة أو كهفا.

القادمون من الصحراء الهمجية.. وجدوا في الزريبة مأوى لهم ولتخلفهم.. وتنفيذا لأسيادهم راحوا يسومون الناس أبشع أنواع التنكيل زاعمين أحقيتهم في ذلك.. دين المخابرات والصحراء تصدر هؤلاء تحسبا من عمائم همجية تأخذ مسارا مختلفا وتفرضه على "حاموت".

حلبة لمصارعة الثيران.. ثور معمم وثور صحراوي ممتلئ يغرز حوافره بالنفط، فيكيل الدولارات بلا ميزان لمن يجيد ضميره

وجشعه انتشار الجوع والعوز والتشريد... مقيمون آخرون دخلوا "حاموت" واستباحوا حتى الحلم بينما أصحاب الفكر المتنور لم يجدوا لهم أبوابا يدخلونها للقضاء على سطوة الكرسي، وبقوا في أحضان الرعب والنفي داخل الوطن وخارجه. رُحلوا قسرا، وبقى من بقي في رحاب الرعب على يد السلطة المتخفية تحت ستار الدين ليكون القمع محللا وشرعيا.

أُتخموا حد الاختناق وكبرت كروشهم وتهدلت، وكبرت عماراتهم خارج "حاموت" وفنادقهم وقصورهم، وحلّلوا لهم ما حرموه على الناس وانتفخوا.

الذين وضعوا أيديهم بيد أعداء "حاموت" تسيدوا عليها ونالوا جزاء خيانتهم لها الزعامة والحصة الكبرى في كل شيء.

دخان قلوبهم الحاقدة السوداء علا أجواء "حاموت" ودسائسهم الخفية وتمويلهم للقتلة المأجورين.. نشروا ريحهم الهوجاء كي لا يتنفس أبناء "حاموت"..

نعم كان هناك هواء.. لكنه الهواء المسموم بعهرهم وزناهم العاري من الرجولة والأخلاق.

يا لجدران البيوت التي بللتها السحالي بأرياقها اللزجة ويا لعيون الثكلى والمحرومين من عطف السماء لقطرة مطر

حين يراني "عزيز" أهذي يتحول إلى صمت، حتى أنفاسه يكتمها مستمعا لسعير أضلعي.

أُسائل نفسي وأوجه أنظاري إليه لعله يجيب:

- أشعر كأنني أشرب صمغا وألوك بغرغرتي.

- ألا تشعر مثلي بالعجز أمام هذا الخطر الذي يهدد "حاموت"؟

- ما يؤسف جدا أن بينهم من ناضل وسُجن وعُذب.

- مَن تقصد؟

- أسيادكم الحاليون.. وهم الأعداء الأشد خطرا من الناس العاديين فقد زُرعت في نفوسهم الأحقاد والضغائن حتى كبر وعظم الشيطان في دواخلهم ... وجاء دور شيطانهم ليأخذ حقه.

- يأخذ حقه من الناس، من الشعب الأعزل؟

- نعم، من الشعب الأعزل، فالشياطين تختار الضعيف وتهاجمه ليبدأ الصراع بينهم على حساب العزَّل والضعفاء، هم ثمن حلبة المصارعة... أو قل تذكرة الدخول إلى الحلبة.

- والمعمَّمون، ماذا تسميهم يا "عزيز"؟

- إنهم سجناء مكبلون بالأصفاد، والوصايا الكاذبة.. الخطب الوهمية أغلبها مُسيَسة، بينما الأصليون انعزلوا ولم يشاركوا في الصراع.. انكفأوا على ذواتهم المشفقة على ما يجري، والتزموا الصمت؛ صمت العاجز أعتبره وليس صمت الحكيم ... لقد لاحت لهؤلاء المجزرة ولم يرغبوا بالمشاركة فيها.

حضر نفسك سنقوم برحلة الليلة فقد أصبتُ بالملل لمجاورتكم هنا.

إنني لا أعرف الحقد، وإلا لحقدت عليكم إلى يوم الدين.

سوف نسافر إلى من تطهرت روحه من الحقد، وصفا قلبه وعمله من الآثام ومَن وقفتُ حائرا حيال ساعته وعاجزا عن تلبية أمهره.

(10)

كان سعيداً جداً، بينما أصحابه وأهله استولى عليهم الذعر الشديد، وأنا وقفتُ حائرا حيال ذلك، ما الذي سأفعله!

جاهدتُ في التملص من لحظتي هذه، وقوفي قربه والتصاقي بحنجرته يُشعرني بالشر وأنا بعيد كل البعد عنه.. الأوامر اقتضت التواصل والاستمرار معه حتى اللحظة الأخيرة.. أما كان الأجدى بالسيد "جليل" اختيار غيري لهذه المهمة!

حيرتني سعادته المفرطة، أخذت أوراق الأشجار تتساقط لهول اللحظة، وتضامنا مع سقوط جسده هبت رياح قوية، الناس شاخصة أبصارهم نحوه.. وهو مغتبط فرح مثل فارس يعتلي صهوة جواد.

مِن أجل مَن يبتسم؟ من أجل افتراض أم حقيقة؟ كم تساءلتُ ساعتها لأتحرر من أوجاعي الآنية وأنا ساكن في حنجرته حد الحلق.. في أعماقه إرادة المعرفة، وتجلي إله في روحه، كيف لي الوقوف حائلا بين إله وروح!

إن كان كل شيء افتراض فمَن أنا؟ ولماذا تقع على عاتقي لحظة مُرَّة؟

هو المقصد الذي تجلى به أمر "جليل" والمهمة حجر كبير يثقل صدري.. طموحي نحو حياة باقية. والحفاظ على غرغرتي الأخيرة في استقبال الموت مرتهن باستكمال أصعب المهام وأقساها.. سترتُ وجهي لئلا أشفق على جسده النحيل

وسارعت الهروب بعينيَّ فأغمضتهما، وغطيت أذني بيدَيّ، خطف طيف برق أمامي قائلا:

- إن حريته من أجل المتألمين على الأرض، فأطلقها وحرر روحه الأقرب إلينا الآن.

- ثم لا تنسى وعدك.. مددتُ يدي إليه مضطرا لأقتطف الثمرة.

كان يقتسم الخبز ويقتطف الثمر مع صحبته، يشد بأسهم بخمر روحه ويسقيها إليهم إن اعتراهم ضعف.. يقابل أهل الضمائر الضالة بالحب والتسامح، وشر الأفكار الشريرة بالحب.. قلبه النبيل لا يلحق الإهانة حتى بعدو.. ذلك ما يدعوني أن أقف وقفة قاتل ابنه أو أمه.

من ضعف قواه ووهن بدنه سمعته يناديني:

- لا تتأخر عمَّا أُمرتَ به، طهرني من أجل تطهير الآخرين، دعني أكفِّر عن سيئاتهم الآنية والمستقبلية، أطلق سراح روحي لتصبح نفحة طهر لقروحهم المستفيضة ودائهم الخبيث.

إنني أغفر لك جنايتك فلا تتصور يوما أنني سأطلب عقابك من "جليل". إن الخير فيما ستقوم به الآن، فقم وأدِ واجبك.

كان يتعالى حتى عن الإشفاق عليه وتأجيل لحظته، فقد وهب نفسه شفاء لداء نفوس الآخرين.

لاحظتُ "عزيز" يتألم في استحضار اللحظة تلك.. قررتُ إخراجه من وضعه المؤلم، والدخول معه في حديث شيق:

- هل وقفت الموقف ذاته مع عاشقيَن مثلا؟

- ليس كل عاشق يا صديقي يستحق أن ألوم نفسي على تفريقه عمَّن يحب.. فهناك عشاق يعيشون في مستنقع أوحالهم، وهناك مَن يعشق فكرة صدقها حد الإيمان وجثا راكعا لها، هؤلاء عبيد وأنا أكره العبودية.

ابتسمت وداريت بسمتي، لكنه انتبه إلي:

- علامَ الابتسام؟

- لأنك عبد أيضا يا "عزيز"، أي نعم أنت عبد، فلا تغضب من كلامي. لكن أكمل . . . حديثك شيق عن العشاق.

انخرطتُ في تأمِّل مزيدا من حديثه، وانخرط هو في صمت أزعجني. قلت له:

- بدأ النور يشق طريقه، هيا أكمل حتى أقوم لإعداد فطور لنا مع شاي ساخن كما يحلو لك تناوله ساخنا بالنعناع.

- نكمل عن العاشقين.. حسنا.

شابان في "حاموت" من أجمل شبابها وأطهرهما عشقا.. لم يمسهما السوء والفاحشة، كان عشقا طاهرا نقيا ونادرا لعمقه وتلاحمهما كروح واحدة في جسدين.

عيناها كأنهما رغيفان لكل فرد في "حاموت" ووجهها الأبيض الجميل إناء يسقى عطش قلوبكم المتصحرة.. ووسامة حبيبها تبهر القلوب المتحجرة.. لم تدمرهما الحروب أو السيارات المأجورة من حاقدين على "حاموت" بل دمرها أهلها وشردوه أهله كي لا يقع عليه عقاب الرجم.

شابة في مقتبل العمر، لم تتجاوز السابعة عشرة.. اختطفها

عمها من حضن أبيها وأمها الرافضين قسوة العُرف والتقاليد، وصلبوها على جذع شجرة.. أحضروا كل أبناء العشيرة والقرية لرجمها بأحجار أرضهم، وأحجار قلوبهم المتسخة بالحقد. حاولتُ جاهداً إبعاد الأحجار الكبيرة عنها واستقبال الصغيرة التي لا تضرب الرأس، كي أهبها وقتا أطول لتتنفس الهواء.. ونار تشب في قلب أبويها الصامتَين أمام الجميع.. إلا أن ابن عمها الحاقد عليها وعلى اختيارها لغيره اختار أكبر حجر واقترب منها شاجا رأسها إلى نصفين، حتى غرقت بدمائها.

قاطعته:

- ألستَ صاحب القرار الأخير سيدي؟

هل غافلك ابن العم ليخترق قرارك؟

تنفس عميقا مثل مَن يستخرج رمحا من صدره:

- مهمتي الثانية الأخيرة والأسباب هي مهام آخرين.. دخلت إلى المطبخ أعد بيضا مسلوقا وشايا بالنعناع.. وعن بعد أعدت السؤال عليه:

- هل أحزنكَ الموقف؟ ولماذا لم تحيل دون شج رأسها من ابن عمها إذا فعلا تألمت للتفريق بين عشيقين طاهرَين؟

لم يرد علي، صمتَ كعادته حين ألح عليه، دخل إلى الحمام، غسل وجهه وحضر المطبخ معي يساعدني في استكمال التحضير لوجبتنا الصباحية..

اخترق صمته فجأة وهو يحمل الصينية إلى الدار:

- إنه الوعد.. الوعد.. فأنتم أبناء "حاموت" لا تقيِّمونه ولا تعرفون قيمة الوعد.. يفتل أحدكم شاربه واعدا ويقسم برجولته،

لكنه يخصي هذه الرجولة ويغير رأيه ووعده في ثانية.. أما نحن، الأشباح كما عرفتمونا هنا.. فالوعد سيف نضعه على رقابنا ونكون بقدر حده القاطع.

- يعني نحن الرجال المخصيين؟

- بل لا رجولة لديكم.. أتدري.. أن النار في يومها الموعود لو عرضوكم عليها لاشمأز لهيبها منكم.. ثمار قلوبكم فاسدة، وأرواحكم آسنة، ونفوسكم تهرب من جيفتها الخنازير.

على مهلك.. ألستُ صديقك؟ أنا من أبناء "حاموت"أيضا.. وأنت لم تهرب مني.. فماذا تصفني؟

فأنا ذقت الأمرين كي لا أصادق أصحاب السلطة والنفوذ، صادقتُ الصمم والعمى وكرهت مسراتهم على حساب أفواه "حاموت " الجائعة، أشمئز من ذكر أسمائهم كما قلتَ الآن تشمئز الخنازير من عفن أرواحهم.. لكنني لستُ خنزيرا.. إنساني هو سبب بلائي، نعم الإنسان اليقظ في دواخلي منعني من مصاحبتهم والاتكاء على سبب أبرر فيه جمع ثروة تقيني عوزي.. أنا لست مثلهم.. ولستُ خنزيرا.

ضحك من كلمتي(لستُ خنزيرا) وردد:

- فعلا أنت لستَ مثلهم، لذا عقدت الصداقة معك، لأنك تريد أن تعرف، وتتساءل.. والذي يبحث يقتل الحيوان فيه، ويصبح إنسانا.. صادقتُكَ لوجود عادل في داخلك.. وابتسامتك ليست مثل أشداقهم الشاربة من جداول نفوسهم المسمومة.

- لا تجرني بالحديث عن إثم أهل "حاموت" وتبعدني عن وجهة نظرك حيال تلك الفتاة،الرجم، مَن سنه علينا؟ أنت؟ جليل؟

أتباعه؟ أم نحن خلقناه، اختلقه الرجل، الذي أحل لنفسه كل الطيبات وحرمه على الجنس الآخر.. أصبح الرجل السيد في الدين، وكأن السُّنة أسِّسِت من أجله.

- لا دخل لي بسنتكم، فأنتم عورة الزمن.

- أصاحبك عورة؟ ويلي كيف أداري عورتي من صديقي.

التهمنا الفطور بالضحك والمرح وبعض المزح الخفيفة، وبعد الانتهاء حضر نفسه للخروج، إنما تحدث عاجلا:

- هناك مَن يدفعني إلى اقتناص أجمل العاشقين، وأحضرهم كوليمة صباحية مثلا، حسب وقتها بدقة، فأنا لا أتأخر حتى عشر الثانية عن ذلك.. أعرف أن الورد ينحني للعاشق الملتاع وتنهمر الأمطار لأجله.. لكنني أمارس هوايتي في الصعود إلى أرض أخرى.

- قدري يحتم علي، وموقدي الذي أعيش فيه.

- أتعيش في موقد؟

- أي والله أعيش في موقد، وعلى نحو تعس أقدم الأضحية والقرابين، ضريبة لبقائي.. وتلك العاشقة كانت ضريبة ضعفي وعبوديتي، فقد حز في قلبي دمها المسفوح الذي ألهب كل أعضائي.. دم ساخن وجسد بض يتلوى.. أي إحساس مقدس، وأية قدسية تذوب لهفة لعاشقة كل ذنبها اختارت من تريد.. اختيارها حرية لذاتها من عبودية عُرف العشيرة.

شعوري هذا جعلني أسبح عكس التيار.. وحتما سيجرفني إلى ما لا أريده وأخالف وعدي.

هل أدركتَ حجم معاناتي يا "محمد"؟

كم بكيتُ خفاء وداريتُ دموعي.. ولو أظهرتها وبينت إشفاقي ولحظة ضعفي لقضيت نحبي منذ مدة، لكن أمدي بعيد.. بعيد لا يعرفه أحد.. وسنسير إليه لترى حجم الصاعقة.. ثم أعيدك.. فقد اخترقنا أزمانا منصرمة وسنخترق أزمانا لاحقة.

الآن.. سأخرج لإتمام مهمة كبرى.. إنها آلامي الدائمة يا صديقي وعلي تحمل المجاهدة.

(11)

ثمة ما يجعلني أحرص وبشدة على مواصلة كتابة أدق التفاصيل عن "حاموت" وعن صديقي الأثير "عزيز".. لم أترك شاردة أو واردة إلا ودونتها.. التفاصيل المهمة وغير المهمة، بالنسبة إلي هي دورة حياة كاملة بنقصها واكتمالها.. هناك ما يفتح النور ويزدني وضوحا في ليلنا المستمر، وهناك ما يواصل حديثه مع العتمة.

أثرياء مسرفون في البذخ، أثرياء السرقة والبيع بما لا يرضيه الشرف والضمير.. في الجانب الآخر فقراء معدمون.. لكنهم حريصون على حصول لقمة العيش بكرامة.. هناك مَن شحت يده في العطاء وشيد القصور واشترى أثمن السيارات والمجوهرات.. ،وهناك مَن لا ينضب عطاؤه ولو بقرص رغيف.

حينما أخلو إلى نفسي.. أشعر كأنني سفينة خاوية.. أكتبُ كمن لفه أخطبوط ويحاول الخروج من شرنقة.. تحاصرني عيون كثيرة وتشدني إليها، أبحر فيها طويلا لعلني أعثر على سبب نظراتها المترفعة حتى عن طلب كلمة رحمة تعيد إليها إنسانيتها.

أغوص في قاع "حاموت" في كل جوانبها واتجاهاتها الأربعة، لا أجد غير الحرب والغضب وشح الابتسام.. أتوجس من الشفاه المقفرة وأرجو لها ابتهاج الأعماق.. هي وحدها قادرة على انتشار البهجة في أعضاء الجسد كله.

دونت ما سمعته على أفواه الناس، إذ صاروا يترحمون على زمن غابر وظلمه القاهر مقارنة بما يحصل لهم اليوم.

إلى ماذا ستوصلني الكتابة وهي تواصل التدفق مثل نهر جار.

سيل من الكلمات والحروف الطيعة والعصية.. حتى صارت "حاموت" منفى.. قلاعا وحصونا تحيط ساكنيها بالوهم.. حلقة مفرغة.. تدور فيها الأقدام وتدور كأنها أرض ليست أرضنا، والأشجار غريبة عنا.. الأنهار ابتلعت ماءها وعجز الطمي عن الصراخ.. حتى الشوك صار غريبا.. والدموع تغربت في المحاجر.

إلى غايتي أمضي كل ليلة، فأدفن نفسي في الكتابة، أحرض "عزيز" على البوح وأسجل حتى أنفاسه.. لهاثه السريع والساكن.. أحاول الوصول إلى جذوري بين السطور فلا أجدها واضحة، اعتلاها الغبار وصدأت.

الأرض رحبة كما أطلقها خالقها بساطا، فلماذا تصبح الأشبار فيها طنينا.. النهار والليل هما ذاتهما، لم يتبدلا، الظل، الخضرة، المياه، شواهد القبور والأحياء، الأوفياء والخونة، القِبلة والتيه.. كل هذا اكتبه.. وأسترجع الذكريات الجميلة، حين كانت "حاموت" ملاذا وحضنا لطفولتنا.. مدرستي الابتدائية.. شقاوة الأولاد وكتبهم.. أقلامهم وحصص الإملاء.. علم بلادي المرفوع عاليا كل خميس.. أين ولى كل هذا النقاء، وأين أصبحنا؟

هل بات رحم الأرض صغيرا لا يسعنا فيحلينا إلى موتي تتحلل أجسادهم وتذوب لتصبح نفطا يحرق باقي الأحياء؟

لماذا حين سألت "عزيز" ذات جلسة بيننا قال لي:

- أنت تعيش على شبر من أرض حاموت؟

أي شبر هذا، وما حجم "حاموت" الكلي؟

على شبر واحد يحصل ما حصل لي وللساكنين هذا على الشبر؟

يا له من شبر بائس وغني غناه سبب بؤسه وطمع الآخرين فيه، فحُل سفح دمنا وأوغل الخنجر في الخاصرة.

أقارن شبر أرضنا على "حاموت" مع أشبار قريبة منا، كيف خلقوا أنفسهم من العدم، من صحراء قاحلة إلى بلد رفاه وعمارات وتقدم في كل مناحي الحياة، حتى صارت تلك الأشبار تضاهي أكبر أشبار العالم، بل تفوق عليها، ليس تحضرا إنما إعمارا وبناء ورفاهية.

لم يكن لديهم أي مكونات التحضر أو لهم تاريخ حضاري وجذور مثلنا، أولى حضارات العالم من الشظية إلى الشظية تهدم ولا تبني.

أين الخلل؟ فينا مؤكدا، وفي من ترأسوا علينا.. أوغاد دنسوا أرضنا ومياهنا.

ما يحز في نفسي تسيدهم باختلاف أشكالهم وانتماءاتهم ومذاهبهم. جعلوا الحياة بحاجة المشوهين من أمثالهم، وبحاجة إلى القتل والتشويه والاستشهاد بكل أنواعه، استشهاد من أجل الدين والعقيدة، الاستشهاد من أجل الوطن.. والنتيجة موت جماعي من أجل كرامة مشبوهة.

(شبرٌ على أرض حاموت)

هكذا أجزلت العطاء "حاموت " الكبرى ووهبتنا الاهتداء إلى ذاتنا ونتفرعن على إخوتنا وذوينا وأصحابنا. كل ينتقم من الآخر ويكيل له الحقد واختيار شكلا لموته.

المساواة صفة قبيحة لا يرضاها سادتنا حسب معاييرهم الأخلاقية، خاصة حين تحكمنا العناكب والخفافيش وتصبح سيدة القرار.

العدالة أن لا مساواة بين الناس.. أتراها عدالة إلهية؟

أي نعم إلهية، خُلقنا أشكالا مختلفة، قبيحة وجميلة، فقيرة وغنية، قوية وضعيفة فعلام نطلب عدالة من عناكب وخفافيش؟

تعودنا التفاوت بيننا وألفناه، حتى صارت نفوسنا أشباحا تسير وفق أشكالها.. الصالح والطالح.. الغني والفقير، الرفيع والوضيع، الظالم والعادل.. خُلقنا على درجات.

هل الحياة سلَّم ولا بد من درجات إلى الارتقاء؟

تُرى على أية درجة من السلَّم وقف" شِبر حاموت"؟

نتدافع في العراك، عراك من أجل العراك، نحن أعداء أنفسنا قبل معاداة الآخرين.

يا لمهزلة "حاموت" حين يهبها الخفافيش والعناكب مكرمة الحياة، ويا لشقاء الواهبين.. فقراء الإنسانية.. أية هبة من فاقد الضمير؟ (فاقد الشيء لا يُعطيه).

سكن المتضررون دورا خربة في العراء، وبعضهم سكن الصفيح، لجأ أطفالهم للتسول، والدعارة.. هو البذل الجزيل من الواهبين للطفولة الشقية.. هكذا ينتعش الوحش فيهم، ويستقيم.

الرقص.. حلبة الرقص الجديدة.. كل يرقص بطريقته.. غابة ترقص على وتر الأحقاد.. المدافعون عن الله بشيطانهم، والراقصون على عمائم اشتبكت مع غاياتها الطامعة فاستحلت الدور

والأراضي والبشر.. عصابات باسم السيادة، لكل منها سجنها وحراسها وطرق التنكيل بهم.. غابة تسعى لاصطياد أجنحة الطيور لئلا تفكر يوما بالطيران.

حادثة المرأة التي رمت اثنين من أولادها في النهر وربطت الرضيع على خضرها ومحاولة رمي نفسها.. لم تكن حادثة عادية.. تم إنقاذها والرضيع وغرق الطفلان الآخران.. لم تصل لهما يد العون بالوقت المناسب، فصارا طعما للأسماك.

أ ي جوع وعوز يجعل أما تقوم بفعلتها هذه؟

الخفافيش دمرت كل شيء حتى صبر الأم، دمرت وأعادت الكرَّات مكشرة عن أنيابها القاتمة.

لا بد من محاسبة "عزيز" هنا وخضوعه لوابل أسئلتي.. لقد تأخر في غيابه هذه المرة، لعله في اجتماع هام مع سيده وأتباعه.

وربما كان على ضفة النهر يتفرج كيف التهمت الأسماك جسدَيْ الطفلين.. قد تكون هذه المهمة التي خرج من أجلها.. لكنه قال مهمة كبرى، والله يستر من مهامه.

جلستُ إلى شجرة التوت في حديقة منزلي، أفكر في كيفية قبول الحياة في "حاموت" أو شِبرها كما قال "عزيز"، ولماذا نقبلها على هذا النحو.. لماذا نعيش على ثنائية الأشياء كلها؟

أوجه لنفسي السؤال وأجيب عل بعضه، ثم أجد عجزي يقوى حيال ما لا أجد له جوابا.

لماذا لا تكون الحياة مسَّرة وفرحا، وسعادة؟

ولماذا خُلقنا لنموت.. البخار المتصاعد، هل هو بخار فعلا؟

هل يعرف هذا الكون اسمه، النهر هل يدري أنَّ اسمه نهر؟

مَن أعطى البحر لغة الموج؟ مَن نسق هذا الخلق؟ مَن نحت في قلوبنا الخير والشر؟

لا أستطيع الاستسلام بأن الحياة مجرد أوراق تتساقط من شجرتها الكونية.. أو مجرد اشتهاء وقلق وعداء.. لا بد أن هناك ثغرة ما في الأرواح المستسلمة.. ليست هي جزيرة نائية من القبور يأكل صمتها أعز مَن نحب، وأجمل من عاشوا بترف وشظف العيش.

فيما أنا في خضم انفعالاتي، دخل "عزيز"منهكاً.. دخل إلى المطبخ كأنه يبحث عن الاستعاضة بالأكل عمَّا يستولي عليه،ويسكن روحه.

رغم صداقتنا القوية وتعلقنا في بعضنا إلا أنني في كثير من الأحيان أمرّ في حيرة:

- لماذا يا ربي أرسلت الأشباح" لحاموت"؟

ثم أصمتُ لاقتراب "عزيز" مني، لستُ ضعيفا، إنما توطد علاقتنا جعلتني أخاف غيابه عني.. أردتُ مشاكسته، فالتقطت من يده لقمة قريبة من فمه:

- قل لي يا صديقي، ما بك اليوم منهمرا في الأكل، هذه ليست عادتك؟

- دعني.. لقد مررتُ بيوم عصيب، ويعرف "جليل" جيدا ضعفي حيال الأطفال، لكن!

- لكن ماذا؟ هل كنتَ على النهر؟

هز رأسه متألما:

- أجل، كنتُ هناك.

- لماذا لا تحضر ولائم الأفراح والأعراس؟ لقد غدوتَ آلة بيد "جليل" يحركها كيفما يشاء، ألا تملك إرادة، رغبة خاصة ترجو تنفيذها لترتاح قليلا من العبودية؟

دنوتُ منه ومسكت بكتفه، هززته بقوة.. شعرتُ بيدي تكاد تُشل، وبدني يرتعش كما سعفة في ريح.

سحبت يدي بقوة، وجلست قربه:

- أظن أن إرادتك وقوتكَ أن تجثو أمام " جليل".

نهض غاضباً لكنني قصدتُ إثارته:

- أليست هذه ذروة نشوتك؟

استولى عليه الغضب، وهذا ما أصبو إليه.. برقت عيناه بشرر مفاجئ، فاكتسبتُ مزيدا من قوة لمواجهته:

- هل ستسخطني جثة هامدة؟ لتبرهن لي أنك الأقوى، وتتمتع بسيادتك علي؟

- إنك الأضعف يا صاحبي، أجل.. الأضعف الذي ينال حياته وبقائه بسلب حياة الآخرين.

هذا استسلام القوي للأقوى منه.. لهذا أنت بنظري الأضعف الوحيد الذي سيبقى إلى آخر لحظة مع سيده.

ربما هي الخدمة المتبادلة بينكما.. بين بقائك وبقائه.. هل تعتقد أن جهتك هي جهة "جليل"؟

لا أظن.. ليس هناك إلا جهة واحدة.. الجهة المتربعة على عرش ذاته.

دعك من هذياني، وأخبرني الآن عن سبب وجومك وحزنك وضعفك كما تقول حيال الأطفال.

وضع كفيه على رأسه كمن يسترجع ساعة قاسية:

- لقد وشوش أصحابي بإذن أم فقيرة معدمة، الحاجة والجوع جعلاها تفكر بالانتحار، وترمي نفسها في النهر.. وشوشوا بقوة مثل زفرة ريح، فتوجهت هناك، مدت يديها إلى النهر ثم أرجعتهما إلى حضنها، ضامَّة الطفلين بين أضلعها.. تمنيتُ لو بقيتْ هكذا أطول مدة.. لكن أصحابي عليهم تنفيذ المهمة بدقة، وقفت الأم متصلبة لبكاء أحدهما، ربما شعر بلحظة الفراق... أو غرس الجوع أنيابه في بطنه فصرخ، لكن أصحابي ألجموا فمه، وواصلوا الوسوسة.. اقترب منها الأقدم والأكبر سنا، وشد ذراعيها إلى جهة النهر.. رفرف الطفلان تفاديا الغرق، رفرفا مثل جنح مكسور، نظر إلي باقي أصحابي مستغربين، اندفع كبيرهم إلي وهزني:

- هيا.. قم بواجبك.. وعدكَ لا تنس الوعد.

لا أستطيع أن انقلب خصما عليهم، و"لجليل" ترددتُ كثيرا.. إنما الأم شدت على خصرها رضيعها، ربطته بقوة كي لا يسقط منها حين ترمي نفسها إلى النهر.. قلت لهم:

- سأقوم بالواجب، لكن لندع الرضيع وأمه في حال سبيلها.. لذا وقت تركنا المكان تجمع لناس لإنقاذهما.. ، واستسلم الغرق لأرادتنا.. أصبحت الأمواج والصخور مشرقة، عاد الصحبة إلى مجلس" جليل" وتركوني في حزني، توجهتُ إلى دارك يرافقني

شعور العري، ولي رغبة التقيؤ.. رغم فرح الأسماك بالوجبة الطرية.

فكرتُ أن أطلب منه يأخذني إلى "جليل" وباقي صحبته، لكنني أرجأت الأمر لحين يهدأ طبعه، سيرفض حتما لو سمع مني ذلك الآن.. الوقت غير مناسب وعلي تأجيل هذه الفكرة.

(12)

أخيرا عرفتُ نقطة ضعفه، وسأنسق معه مستقبلا في أمور كثيرة.. كنتُ أفكر، لمجرد الفكرة، لكنه اخترق تفكيري قائلا:

- دع أفكارك إليك وحدك، لن تصلني ولو في حلمك، واقتصد لئلا تقضي عليك فأنا أقرب إليك من نفَسِك وأعرف سرك قبل التفكير فيه.

أجبته وبحذر:

- لماذا تجعلني أراك مثل كومة من الأشواك أيها القنَّاص؟ ألا تتعب من الشعور بالعظمة؟

انتفخ صدرك وبطنك من القنص، ألا تشبع؟

شحب وجهه وشعَّت عيناه بنظرة لم أرها من قبل.. ربما أزعجته كلمة "قنَّاص"، إنه يكره الصفات التي نطلقها عليه في "حاموت".. لقد اكفهر وجهه وذهب بعيدا.

ذعرتُ من نظرة عينيه ولاحت على ملامحه عشرات الألوان.. صفرة، وحمرة، وخليط معا من كليهما.

عاد إلى هدوئه ووضعه الطبيعي:

- لماذا تنعتي بـ "القنَّاص"؟

- كثر القنَّاصون يا سيدي، وتعدد وجهات تمويلهم وتجنيدهم.. إنها إمبراطورية الشر في كل أشبار "حاموت" ألم تقل بأننا نسكن على أشبار؟

صرنا لا نعرف من أين سيأتي الشر، من الشوارع، من الحارات، من الطائرات، من القصور العالية ومن السيارات المارَّة.

- هذا هو وضعكم يا "محمد" إنكم لا تنتقمون إلا من أنفسكم، غابة يأكل فيها القوي الضعيف.. تختلقون الترهيب طمعا في نيل سلطة مزيَّفة، سلطة وهمية تبنون عليها عروشكم... ويلي منكم عليكم.

- أهذه فلسفة يا "عزيز"؟

صحيح صرنا غرباء عن أنفسنا، وتكالب الكلب في داخلنا، لكن نحن معذورون.. الجوع والعوز كارثة.. أليست لك يد في ذلك؟

تقول أن أتباعك يهيئون إليك الوليمة ويرفعون عن كاهلك مشقة التحضير، فتأتي أنت على الجاهز.

من أرض أجهلها تأتون ثلة قناصين؛ من البحار والمحيطات، من السماء والأرض.

خُيِّل إلي أنكم تأتون بأطباق طائرة، تحطون ساعة الجوع ثم تغدرون بنا.

- ويلك يا "محمد".. نحن لا نغدر، وعملنا مضن لغاية، نحن نطهِّر الأرض شروركم. لو استطعتَ استنطاق الأرض وسألتها عن أجسادكم المتفسخة للفظت ماء آسنا، هو استرجاع جوفها لمجرد ذكر أسمائكم في "حاموت".

- "عزيز".. يا صديقي الأثير، وسط زخم الشظايا والقنابل واليورانيوم والسموم، ألا تصيب أحدا منكم شظية؟

ألم يغرق أحد يوما في طوفان " تسونامي " مثلا ألم تسمك غضب ريحها وهياج مائها؟

اعتدل في جلسته وحدق في عينيَّ موضحا:

- أصحابي لا تستطيع رؤيتهم ولا شيء يخترق أجسادهم لأنهم فوق الاختراق.

إنما لهم يد طويلة، وأنفاس مثل القارعة إذا نفخوا في البحر أغرق مدنا كاملة وهدّ صروحها.. وأنا أمدِّ شبكة ذراعي، لأحصد ثمر ما قاموا به.

- وليمة جماعية يعني، وتكفر عن خطايانا في "حاموت" بالغرقى والمدفونين تحت الأنقاض.. أراك تكرر كثيرا(كل شيء منته إلى الزوال)، وزوالك أنت ورفاقك، أليس لكم يوم موعود من " جليل"؟

خذني معك يوما كي أتعرف عليه وعلى صحبتك، أتشوق إلى ذلك.

- لا تستطيع رؤيته أو الدخول معي في داره.. هو محجوب عن أمثالكم، وإن قابلته لن تراه أوترانا.. أنا فقط ظهرت إليك بصفتي هذه لأرتقي بك من الأمور العادية إلى السمو الأعلى.

- أي سمو يا " عزيز" وأنت شبح شيطان؟

هل تسمو الشيطنة بعرفكم؟

ما أنتم إلا أشباح راكعة خانعة.. إنما نحنُ حقيقة مجردة من أية خرافة، أنتم كائنات صنعناها بأوهامنا على مر العصور حتى صرتم حقيقة.

وكيف يظهر الوهم بصفة رجل أمامك؟ هل حديثي معك أيضا وهم؟

- سيأتي يوم مخاض الأرض، فقد كبرت بطنها وطال حَملها، وستلد عيونا حمر، وأشكالا دنيئة، سترفضكم بطنها مكتفية بانعكاس أشباحكم البشرية المشوهة في مرايا السماء.

- ومتى سيحين ذلك؟

- وقت تحين الصرخة الكبرى، وينفث صاحبي" أشرف" نفخته الكبرى بكم.

- أشرف؟ اسم غريب لشبح؟

- وهل تظن بأنني ألثغ في الكلام؟

أسماؤنا تختلف عنكم.. وأنتم تدنسون الأسماء بأفعالكم، تختارون أطهر الأسماء اقترانا بمن سُمِّي بها، لكنكم الأبعد من الوصل إلى أصحابها... لذا لن يسود سلام في "حاموت" ولن تبقى.

- هل ستفرد أذرعك على "حاموت" كلها في ثانية، ساعة الأمر الأكبر؟

سوف أريك بعضا من لحظتنا، شرط أن تحافظ على ثباتك ولا تصيبك صاعقة هول ما سترى.

- متى ستأخذني؟ أرجو قريبا.

وضع يده على كتفي قائلا:

- أغمض عينيك، سأريك حلما عظيما.

شعرتُ ساعتها أنني بحجم ثقب الإبرة بين أصابعه.

شيء معتم يتهاوى أمام ناظري.. وريقات أشجار تتساقط،وريقات تورق من جديد.. كأن عليّ التذكر والرجوع إلى الوجوه والأشكال التي مرت علي في حياتي.. الصخور الصامتة، الصغيرة والكبيرة.. البحار والأنهار.. الثرثار والصامت.. عندئذ أخذتني رعشة قوية، اندفعت في داخلي صور شتى، لاحت لي "حاموت" عارية.. أبناؤها عراة وضائعون.. الريح قوية تقضي على آخر نتف من أجسادهم.. الأشجار، الظلال.. تتدافع الكائنات تدور حول بعضها وتذوب.. أصبح كل شيء بلا حراك ما عدا أصابعه التي تلعب بكتفي مثل طفل خائف يُرَبتُ عليه.. في كل ضغطة من أصابعه تصلني صور جديدة.. مواضع لم أرها من قبل.. الجبال الصلدة تتحول إلى بقايا هشة.. والريح تعصف، وبعصفها تدور بنا الأكوان.. تضيق وتتسع المشاهدات، حتى أنني في بعض الأحيان أصاب بالعمى، ثم أعود لأبصر ما لا يدركه العقل.. حتى لتغدو الأرض مثل كرة صغيرة بيد طفل.

فجأة تلاشي كل شيء.. الألوان أخذت تتحول إلى بنفسجية وصفراء وحمراء.. إذ لم أعد أميز لونا معينا.. و"عزيز" يضغط أكثر على كتفي.. تضاعف تألق المكان بألوانه المختلفة النور والتوهج.. رأيت نفسي معلقا فوق شجرة كبيرة جرداء، تساقطت أوراقها كلها إلا ورقة كبيرة واحدة، اختبأت خلفها مندهشا مما أرى.

الآن وحدي، حاولت الصراخ.. بلا جدوى، حتى أنا لم أسمع صوتي.. ثلاثة أشباح كانوا مع "عزيز" تحولوا إلى كائنات مختلفة.. النور يشع منهم وتلتف حولهم هالاتهم المضيئة.

المكان فارغ تماما، لا صوت يأتي ولا همس.. صمت

مطبق.. فجأة سمعت نداء رهيبا زلزل المكان كله.. كان النداء على شكل سؤال لـ" عزيز" :

- مَن بقي يا" عزيز"؟

- لا أحد سيدي، سوى عبدك المطيع، وأخي" مكي، وجابر، وأشرف".

أجابه الصوت الصادر من بعيد:

- آمرُك أن تقضي على "جابر".

تردد "عزيز" كثيراً، كيف بمقدوره القيام بمهمة صعبة كهذه.

جابر كان من أقرب الناس إليه، ومن أصدقهم في التعامل مع من اصطفاهم "جليل" ندماء له.

سمعته يقول هذا الكلام وأنا مصغ بكل جوارحي وهو يسير بطيئا نحو"جابر" يتقدم خطوة ويرجع خطوات.. وكلما تباطأ سمعنا الصوت يكرر نداء الوعد، فيسرع أكثر في خطوه.. وصل إلى مكان قريب من الشجرة الكبيرة، حيث " جابر" يصلي سجودا.. وحالما شاهده عرف أن حتفه آتٍ لا محال، فقال " جابر" لـ "عزيز" :

- قم بما أمرت يا صديقي ولا تتردد.

ساعتها احتضنه ولف ذراعيه عليه بقوة، وكلما انهمرت دموع "عزيز" شد من قبضة ذراعيه على "جابر" حتى اختنق وخر صريعا على الأرض المعشبة... ثم عاد إلى مصدر الصوت الآتي من مكان عال.. فعاود السؤال ذاته:

- مَن بقي؟

- بقي صديقي "مكي وأشرف" وعبدك المطيع سيدي.

وحين أمره القيام بمهمته من جديد، صارت أجنحة "عزيز" مثل سعفة تلفها الريح.. اصفرّ وجهه، وتلعثم في الرد، لا يقوى على رفض الأمر، ولا يرضى بهذه المأمورية الصعبة.. كان على يقين أن دوره آتٍ لا محال.. خاصة حين صار "مكي" بين يديه مثل سمكه ترفرف خارج الماء.. وأشرف أنغرس نفَسَه الأخير وغرغرته بين أصابعه كأنها مروحة متجردة من الهواء.

أقفل راجعا والحزن يكبله ويعصر قلبه، فموعده الآن مع نفسه، هو الوحيد الآن مع "جليل" المختبئ في هالته النورانية.. صهيل روحه يخفت كما أنفاسه المتلاحقة.. لم يخف ثانية في حياته، ولم يذق طعم الخوف أو يعرفه.. ضعف أي نعم.. تردد، وتباطأ لكنه لا يعرف الخوف.. إنما الآن أمام مصيره هو.. عاود السؤال عمَّن بقي، والرد ذاته:

- بقي عبدك المطيع سيدي.

كان مترعا بالخوف.. رغم صفاء المكان مع صفو الريح وهدوئها.. صراعه الآن مع ذاته.. مع قوته وجبروته.. ومع صعوبة القضاء.. أشار إليه "جليل" أن يذهب هناك.. كان يعرف جيدا مقر الـ "هناك" أين ويدرك جيدا عمق الحتف وهوله.. لكنه عبد مطيع كما يسمي نفسه.. عبد إلى درجة خنق أعز الناس إليه وأقربهم إلى نفسه.

جرجر عبوديته إلى مقرها وسار بكل بطء حتى اختفى، سمعت

صيحة مدوية هزت المكان، لم تكن الصخرة مثل الهزات الأرضية التي تحصل هنا وهناك بيد "عزيز" أو صحبته.. كانت مختلفة، فالهزات تطمر أعدادا هائلة من ساكني "حاموت" والآن جاء دورك يا "عزيز".. صعب علي غيابه وعزت علي صرخته.

لكنه ضغط بكل قوته كي أصحو من غفوتي.. كنتُ أزبد وأثرثر.. وحين فتحت عيني وشاهدت عزيز، انتفضت من مكاني هائجا:

- أنت هنا يا صديقي.. أنت هنا لم تمت؟

قدم لي قدح الماء لأشرب ورش على وجهي بعضا منه:

- نعم أنا هنا لم أغب، وأنت كنت في حالة حلم عميق.

- لكني رأيت سيدك "جليل" وباقي صحبتك.. كنتُ ملتصقا بالشجرة وشاهدت كل شي، حتى صرختك.

- كنتَ تحلم.. نعم كنتَ تحلم، سنواصل يومنا، ماذا ستفعل اليوم وأين أنت ذاهب؟

- لا أرغب بالحراك أريد أن أنام، أشعر بإرهاق شديد وبحاجة إلى الراحة.

تركني منهكا وغادر.. لكنني لم أستطع النوم رغم حاجتي الماسة إليه.. بل الحلم زاد من حيرتي، وتوسعت تساؤلاتي حول القوة، وماهيتها.. عن علل الأمور وعن الانقياد التام "لعزيز" نحو قوة أكثر طغيانا منه.. إنها فتيلة الحرق الكلّي، فكيف تصبح الفتيلة، فتيلة خاصة بها وتحرق نفسها؟ حيرني كثرا هذا السؤال، وحيرتني معه إدارة القوة العظمى.

الكل في "حاموت" يطمح إلى السيادة، والكل يجبره "عزيز" الخاضع إلى الخضوع إليه.. كيف تحصل هذه المعادلة؟

قوة، خضوع، جبروت، حياة، موت.

ضجة الحياة وهدئها، تابعة لتابع تابع، كيف لا أعرف!

إني أحببته كثيرا، وأخشى من تساؤلاتي المتكررة تعرضني للسخرية أمامه.. كما أني تعلقت بـ" عزيز" ولا أريد فراقه.. سأستخدم بعض الحيل في الوصول إلى هدفي لمعرفة ما يجول في خاطري، سأبذل ما في وسعي لرضاه.

نهضت من الفراش بعد جفوة النوم لعمل عصير طازج.. جلست في غرفة الاستقبال وفتحت التلفاز.. ثورة في مكان غرب الأرض التي أسكنها في "حاموت" ثورة الجوع والعوز على الحكام.. هياج شعبي كبير في الشارع، والكل ينادي باسم الشعب وثورة الشعب.. شاهدت شبح "عزيز" يمرق هائجا بينهم، ثم يختفي ويعود ثانية.. وأعداد القتلى والجرحى تتزايد على يد الشرطة وجيش الحاكم.. مع الصراخ وأصوات البنادق والغاز المسيل للدموع كانت أشباح أخرى تمر، وعزيز يشير بيده إليهم.. ثم يختفون... كانوا رهن إشارته. يا لسرعته في اختراق الأجواء.. كيف انتقل من داري إلى هناك.. نحتاج إلى سبع ساعات في الطائرة لنصل.. والأصوات مصرّة على هدفها:

- أخرج أيها الكلب الظالم، لا نريدك على أرضنا.

ويتعالى الصخب وأكثر الساعات ضجيجا.. و"عزيز" يُسدي النصح لرفاقه الأشباح، كانوا يشكرون الجمع الغفير والشاب الذي أحرق نفسه بعد وسوسة أحد أتباع "عزيز":

- بان الجوع كافر ولابد من حرق هذا الكافر في بدنك.

حاكم يترك المكان ويأتي بعده الأغرب منه.. والأكثر غرابة يتطلعون بصمت إلى ما يحدث ليتحينوا الفرصة الملائمة.

غاب عني "عزيز" كثيرا وتركني لحيرتي وشوقي إليه وإلى معرفة وجوده بين الثائرين والمتربصين لثمة فرصة، ليصبحوا أكذب الحكام باسم الدين.. الحاكم حيوان مفترس وخبيث لئيم، وما حصل تسيِّد أكبر حيوان على الأرض.

توالت الأحداث بالعدوى.. وخرجت الكلاب من أشداقها حتى استعاد السكون نفسه من الثوار.. وعلت أنفاس الدخان على أنفاس الثائرين.

استمرت الأخبار تنقل الأشداق والأنياب، وكلمات من اقتنى الذيول الخانعة المستفيدة من آنية الحدث.

زحف المفارقات بين صوت الشعب وصوت الذيول.. والأخيلة والأشباح أقوى من خيارات الجميع.

استولى حزن عميق على قلوب الراجين فرجة أمل وتغيير، وعمَّت خياراتهم خيبة الفشل.

لم يحصدوا مآربهم وسقط جنح الظلام على أفئدتهم وزفرت بؤسا أعمق من ذي قبل.

كانوا يحملون مفاتيح التحول والتغيير وصاروا يحملون مفاتيح الصدأ.. وبين أصواتهم المنادية علا صوت حشرجة القتلى، مما

أدى إلى انكماش حناجرهم وبقي الصفير يطوف في أبدانهم الرافضة وضمائرهم المتوجسة غياب الضمير.

سخر الوضع من نفسه، إذ كان الهدف هدم الأقفال الصدئة حين تقدم الثوار لمعالجتها وكسرها، إلا أنها لم تحرك ساكنا.

تصدع الهواء النقي وبات عفنا... انتشرت البوَم والغربان على الأشجار واختبأت العصافير والأطيار.

الرعب ذاته.. لم يتغير أي شيء، وبات القتل مشاعا وعلنا في الشوارع والزوايا المغلقة.

كأن يد كبرى تحوك المصير، وتخطط له بدقة متناهية.. كي تبقى يدها الوحيدة القابضة على حلقة التشوُّه المقصود،والمحتوم.

في عصر التكنولوجيا والعالم من أقصاه إلى أقصاه قرية واحدة على أرض "حاموت" في عصر التحضر والتمدن، تسرب لنا تلك اليد المتخلفين والظلاميين وتتفرج علينا.. تعرف أن قوتها بضعفنا، لذا اختارت نخبة منهم وسيدتهم.

لا يفكرون إلا ببطونهم وعاهاتهم المشوهة،وفرض التشوُّه.. بينما ممولهم الأكبر يهز رأسه فرحا بالسيادة العظمى.

لا أعرف كيف أكفـِّر عن خطيئة ما رأيت، وكيف أقرأ وجوه النخبة المثقفة الرافضة، وكيف ستصبح العلاقة بينهم وبين القبح والظلام!

كما لا أعرف متى سيرجع "عزيز" وأطلب منه أن يقتدي بالثوار ويثور هو الآخر، بوسعه الشفاء من علَّة العبودية والخضوع.

أتذكر قوله عن الشبر، وكيف يعتبر أرضي مجرد شبر في" حاموت " الكبرى، حتى بتُ أطلق على أرضي بـ" حاموت الصغرى" . . أجدها أفضل من كلمة شِبر أعرف أنها بمقياسه مجرد شِبر ونحن بحجم بعوضة،لكنها أشبار عزيزة علي، أسجن نفسي فيها وأتلذذ.

رغم أنني أرى أعضاء مبتورة، وقلوبا تحجرت. . وكثيرا ما تلجأ عيني إلى الماضي الجميل، هاربة من الحاضر. . فقد حشدت الحياة كل سيئاتها على "حاموت الصغرى" وذعَرَ المستقبل.

الذين كنا ننظر إليهم شزْرا سابقا صاروا محط إعجاب السيادة العظمى، وجعلت لهم دورا في حل مشاكل "حاموت" في أي مكان، لأنهم البئر الذي يمول الإرهاب ويطعم السفلة والدونيين مثلهم، سافل يصرف على سافل، ودوني ولوطي، شرب جرعة السم من سيده متوهما أن كرشه المتخم ذو قيمة وصدق اللعبة ناسيا أنها لعبة شطرنج وكل له وقته.

صدَّق نفسه اللوطي أنه عارف كل الأمور بيده التفاوض لحل الأزمات- بينما هو شر الحياة علي خيرها ودنسها على طهرها.

بتُ أحتقر احتقاره لنفسه، ذلك الواهم بالسيادة وأشفق عليه، لأنه لا يعرف إلى ماذا سيؤول إليه مصيره ومصير الدول المجاورة التي تبذل العطاء لتصدير الجرم إلينا وإبعاده عن أرضها.

ثم تدعو إلى النصح عالم الخنازير. . . والأصوات المُنكرة وذيول المزبلة الكبرى.

الطموح الأسمى إلى الأنانية والحقد بكل توجهاته رقصة على مسرح الزنا الكوني.

(13)

تكاثر المدَّعون ومقترفوا الأرجاس الشنعاء حتى دنسوا الماء الجاري، وتفرعت أحلامهم القذرة في السيطرة على "حاموت الصغرى".

فكم ناجيتُ روحي لأخبرها أن لا تيأس لكن قلبي الهرم شاب قبل أوانه،كما هو شعر رأسي، يشيب الطفل بتحوِّل أرض الخير والعطاء من نعمة إلى نقمة.

المثقفون والمبدعون ظلوا ينشرون الوعي، ويعملون ما بوسعهم لتثبيت أقدامهم الراسخة ولم يتوانوا في محاولة تغيير الشر، وبقوا شموسا غضة في إبداعهم تحرق الغابات السود.

خضع بعضهم للعمى الجديد وتجنَّد لإمرته، صار بوقا بعمامة، وتمسَّح بمسوح التماسيح.

تعددت الأشبار "حاموت" الصغرى أو الكبرى، أو أي لعبة من اللعب اللفظي للتسمية.. يبقى الوضع ذاته (حاموت).

العيش بسكينة بات من الأمور المستحيلة في وقت ترى الكراهية تسود عقولنا، تفتح عيونها وتندَّس بين الأوردة.

عندما أقف أمام المرآة لتسريح شعري، أجد وجهي مختلفا كليا؛ وجه شاحب مغطى بأغبرة الحياة.

كلما غاب "عزيز" عنّي انتابني شعور بأنني لا انتمي

للحاضر.. بل إلى عالم من الغيبية باختلاطي بشبح أو شيطان، أو جنِّي.. فهو لم يأتني بوجهه الحقيقي.

رحت أدور في الحجر من واحدة إلى الأخرى وكأنني لا أعرفها أو عشت فيها.. ألوم نفسي على شدة تعلقها بـ "عزيز".. ماذا لو رغب بالعودة إلى دياره وقصر سيده البعيد، ترى ما الذي سيحصل لي.. تعاستي وفرحي صارا مرتبطين بشبح، وصار الوقت في غيابه يطبق يديه على رقبتي كلما فكرت بالفراق.

أخذتني إغفاءة لا أدري كم كان وقتها، وصحوت على عطش شديد يحرق حنجرتي.. حالما نهضت وجدته نائما في السرير الذي أعددته له سابقا قرب سريري.

لم أشأ إيقاظه، فقد لاحت على ملامحه علامات التعب والإجهاد رغم دخوله في نوم عميق.

شربتُ جرعتَيْ ماء واختنقت.. سعلت بقوة لاسترجاع النفَس إلى صدري، لكن محاولتي فشلت.

صحا "عزيز" على حشرجة صوتي وغرغرة الموت في حنجرتي، نهض مسرعا نحوي وضربني بقوة على ظهري، ثم نفخ في وجهي.. أعادت نفخته إلى رئتي الهدوء والتنفس بشكل طبيعي.

شكرته وحمدت ربي أنه جاء بالوقت المناسب وإلا اختنقت.

- "عزيز".. منذ متى أنت في الدار؟

- منذ أول ثانية لإغفاءتك.

لم أجده سعيدا كعادته حين يلاقيني.. كان يضع يديه على

إذنيه كلما انتابتني نوبة السعال وكأنه يسمع كل أجراس العالم ترن في وقت واحد.

منذ تلك الليلة لم يفارقني ضيق النفَس والسعال، والآلام المبرحة في صدري.. لم أعر لها أية أهمية.. ولم أفكر في مراجعة الأطباء، فالسموم في الهواء نتيجة انتشار المواد السامة من المتفجرات بات يدخل رئاتنا دون استئذان منها.

لكن هالني ذات يوم منظر الدم في البصاق بعد نوبة سعال قوية واختناق.. توجهت إلى "عزيز" أسأله لكنه لم يفه بأية كلمة.. نظر إلى الدم وأشاح بوجهه عني.. مكث برهة ثم عاد ينظر في وجهي.. وضع يده على صدري كأنه يعد عدد شهقات رئتي وعدد نوبات السعال.. ثم تركني مسرعا إلى الخارج.

أقلقني صمته المتواصل ومعاملته الجديدة لي، لم يعد يتحدث مثل السابق، ولم يحك لي عن يومياته أو يأخذني إلى عوالم أخرى نخترق الأزمنة.

لم يغب طويلا هذه المرة.. جلس قربي وكأنه بحاجة إلى عيوني.. نظر بعمق إليها.. فتح العين اليمنى ثم اليسرى متفحصا شيئا من لم يفصح عنه.. سألته والبحة تخنق صوتي:

- ما بك يا صديقي، ما الذي وجدته في صدري حين وضعت يدك عليه، وما الذي تبحث عنه في عينيَّ؟

الصمتُ يجبيني على سؤالي، لكن عينيه أدمعتا هذه المرة، وجاهد ليداري دمعه. كان يتجنب نظرتي إليه.. حتى وقتما تتداخل نظراتنا يهرب منها، ثم يربت على كتفي ويذرع الغرفة جيئا وذهابا والصمت سيد المكان.

طلبت منه ذات ليلة أن يكوِّن له حزبا مع رفاقه ويثور، لعله يتأثر بما يحصل من ثورات في التغيير ونيل الحرية والكرامة.. التفت إلي مثل من يريد فعل جرم مفاجئ.. وصمَت.

ربما كان يفكر فيما أفكر أنا.. أو هو الآن مثل شرارة تضرم النار في نفسها كي تتقد.

ارتجف قدح الماء في يده.. وضعه على الطاولة وراح ينظر إلى الأفق من النافذة.

- "عزيز".. ألا تحكي لي ما بك؟

- ألستُ صديقك القريب إليك؟

في أثناء ذلك اندلعت كتفه تهتز،وشهق بنحيب مكبوت.

- "عزيز" يبكي ويخفض رأسه؟

لا أصدق ذلك.. قلت هذا وضاق صدري كأنما قبر انفتح أمامي.. وشاء صدري الدخول إليه.

سعال واختناق وبصاق دامي. قلت ساعتها:- علي الذهاب إلى الطبيب، فالأمر ما عاد يُحتمل.

تظاهر صديقي بالنوم ليهيئني إلى النوم.. لكن قلبي يخفق بقوة فيصبح حائلا بين جفني والرقاد.. لم ينم هو الآخر، أعرفه يتظاهر ومثله أنا، كلانا يريد راحة الآخر، ويكذب على نفسه.

في صباح اليوم الثاني رجوت "عزيز" الذهاب معي لأقرب مستشفى لكنه رفض مدعيا أن عليه واجب لتحضير اجتماع مصغر مع رفاقه، لم يقل أين ولا كيف، فقط عرفت أن الاجتماع خاص وليس في دار "جليل".

سألني الطبيب عن صحتي فوصفت له ما أعانيه:

أشعر بإعياء شديد، وفقد الشهية والنحول، وعدم القدرة على الحركة كما السابق. كما أختنق بسعال مصحوب بدم.

سألني فيما إذا أدخن أو تعرضت لإشعاع وتلوث.. ضحكت بقوة رغم ضعفي وسعالي الخانق.. وبعد هدوء أجبته:

- أو ليست "حاموت" مدخنة يا دكتور.. مدخنة وبئر ولا منقذ لنا.

- هز رأسه متحسرا وطلب مني الخضوع إلى بعض الفحوصات وحدد للممرضة نوع التحاليل بعد فحصه فمي وبلعومي المنتفخ.. كنت أشعر بانتفاخه إذ يمر الأكل بصعوبة حتى الحساء بات يؤلمني مروره.

بعد مضي أسبوع اتصل الطبيب عبر الهاتف:

- "محمد" لابد من إخضاعك للعلاجات الكيمائية.

شهقت، شهقت وتسمرت في مكاني.. لم يمر في بالي يوما سأصاب بالسرطان.

عرفت سبب صمت "عزيز"وحزنه المتواصل.. أنا الآن أمام حتفي لذا يهرب صديقي من المواجهة.

مَن ذا الذي يملك قلبا قويا ليسمع عن خبر موته القريب.. أيحق لي التحديق في العيون الحاقدة وإخبارها ولو بنظرة أن الحياة مجرد ثانية أو ربع الثانية من الوقت؟

أيحق لي ممارسة المقت ضد العابثين في "حاموت الصغرى"، كيف أشرح لهم وأقرِّب لهم الفكرة، بأن الحياة مثل

حد السكين، أو المنشار، يرد اللّطمة كيفما اتجه صاعدا أم نازلا هو القاطع.

ليس ثمة ما يمكن عمله الآن.. فالشوارع في "حاموت" اقتنعت بالأقنعة والوجوه المغيَّبة.. مَن لم ير حتفه برصاصة أو مفخخة سيلاقيه حَرا وبردا وعريا.

القمر خاوي لا يستنير العشاق تحت سقفه، والمصابيح سُرق ضوءُها كما سُرقت مشاريع الكهرباء الوهمية، شأنها شأن باقي مشاريع البناء والإعمار.

بين هذا الحشد، كان عسيرا علي تغيير وجهي أو جلدي كما فعل كثيرون ممَّن يسهل عليهم ذلك.. حيث بات القاتل في زمن الحكم السابق تقيا ورعا ويؤم المصلين في المساجد ويفتي بما يحلو له أو بما يُؤمر لتتناسب الفتوة مع طمع الواقع.

صعب علي انتظار دقائقي الأخيرة.. فأصبتُ بعزلة جديدة،إذ كنتُ أخرج سابقا إلى المقاهي، وأتباحث مع الأصدقاء أمور الحياة، محاسنها وسيئاتها.. إنما الآن صرتُ فريسة العزلة، أترقب دخول "عزيز".. لم أعد أعرف فيما إذا أنتمي إلى الحاضر أم إلى المجهول.

غدا أو بعد غد لا يهم.. ليست حياتي أهم من طلاب المدارس والأطفال والكسبة المحصودين بقبح سيارة مفخخة في السوق أو قرب المدرسة.

روحي ليست أعز من أرواحهم، خاصة أن حصادهم كان بالجملة، أما حصادي فسيكون مفردا، ولن أتعب اتباع "عزيز" واحد فقط سيقوم بالمهمة، أو هو وحده.

بقيت أحصي الساعات باحثا عني بين دقائقها، كلما تعرضت لعلاج كيمائي، كما بتُّ أتحاشى الوقوف أمام المرآة خوفا من شكلي الجديد.. نُتف شعر هنا وهناك.

وجه شاحب وجسد خاوي القوى.. التقيؤ المستمر وضعف المناعة أصاباني بهزال شديد، حتى بتُ لا أعرفني.. هل هذا أنا فعلا أم زائر جديد دخل حياتي.

دخل حياتنا كثيرون، سفلة وقتلة ومأجورون.. وسادة أكثر سفالة منهم.. كم عرض التلفاز من مجرمين ومغتصبين، وكم عرض من أسلحة ومتفجرات بحوزة عصابات تم إلقاء القبض عليهم ومعرفة أوكارهم.. لكن لم يعرض عن عقاب جرائمهم.. ولم يُعلق أحدهم شنقا في الساحات العامة ليكون عبرة لغيره.. فهم على يقين أنهم سيُهرَّبون من سجنهم وبسهولة، كي يعيدوا كرة الذبح.

أصابني القرف حد التقيؤ من مجرم اعترف أنه استدرج بنات عمه الثلاث ليتمّ اغتصابهن من جماعته وقتلهن أمام عينه، الانتماء إلى مصاصي الدماء بات شريعة هؤلاء القذرين.

لم يعرض التلفاز يوما عن عقاب هذا التمساح القذر.. لكن الأخبار تتوالى عن هروبهم جماعات من السجن.

كم تعطيني أعطيك وكم تهرب لي من أتباع أهرِّب لك وكم تداري على سرقاتي أداري عليك.. ضجر الشرف منا في "حاموت" وصارت الحياة متاهة عمياء.

هي ذي الحقيقة.. ومثلما تذوب رئتي بالتدريج ذوت "حاموت" آخذة بالاختناق.

كل مناحي الحياة تلطخت بالدم وأرض المسرَّة والجمال، أرض "حاموت" باتت كلها اختناق.

ما الفرق بين الوغد الذي استدرج بنات عمه وعرَّض عَرضه وشرفه للاغتصاب والقتل وبين ساسة يقودون الأرض كلها للاغتصاب الجماعي!

السرطان أحن قلبا على المريض منهم على الوطن وأقل فتكا منهم.. لم يهبطوا علينا من السماء، بل جاءوا من عالم داعر ليعيثوا فسادا، سقط الناس كالأسماك في شباك سمومهم.

وأنا.. لا أعرف من أكون الآن.. هل أنتمي إلى العِرق الضائع من سلالتي؟

هل سيبقى العالم متفرجا علينا قارعا أجراسا على رؤوسنا؟

العالم الدعي تخابث حتى على الماء.. ليسحب البساط عن أرضي. كرهت شرب الماء مثلما كرهت الطعام.. فما حاجتي إلى الماء وأرضي كلها عطشى.

صمَتَ العالم لجرم حكام سابقين، ويصمت الآن وبإصرار يزاول مهنة الصمت ويتفرج.

كتبت عن ارتعاشاتي، وإصراري بتحدي المرض، وأكتب الآن عن قرب اندلاع حرب أخرى قرب الباب، فهناك مَن يلعب على وتر الطائفية في أية بقعة من" حاموت الكبرى" ويستغل القتل والخصام لصالح مآربه وجشعه.

(14)

أسائل نفسي من قلب العتمة، وأسمع صرير البرد يطرق الأبواب،

أستقر على كلمة وأنسى الأخرى لأعيد بناء ما هدمه الآخرون في النفوس والضمائر، ما الذي سيحدث أكثر من ذلك في "حاموت"!

من فرط عشقي لها ألتقي بأبنائها كل ليلة في وحدتي ومرضي، ألتقي بهم وجها وجها وأحدثهم، أتوحد بهم وأصير جزءا منهم، أحاول التفكير بما يفكرون،أدخل نواياهم لعلني أصل إلى السبب الذي جعلهم أناسا لا أعرفهم.. التقيت بكل أبنائها.. وتابعت أعماقهم،أوشكت الوصول إلى أننا عالم هش من السهل اختراقه،

وإلا ما سبب الأخطاء التي أدمتنا؟

ها نحن على وشك خطر جديد، باتت أرضي بلا سلام آمن.. بينما النور واضح يمكنهم الوصول إليه والعيش تحت ضوئه.

هشة إلى حد فقد الهوية والوطن... كنت أعود إليهم وأرحل عنهم بأفكاري ووحدتي، أرحل إليهم وجسدي يتذمر منه الفراش لفرط أوجاعه وأنينه.

أتطلع إلى السقف، فلا أجد فيه منقذا يُريني السماء لأخاطبها وأتوسل إليها رحمة ورفقا بأهل "حاموت"، لكنني لا أرى غير كوة صغيرة يدخل منها ضوء قمر شاحب... أشعر بروحي سفينة ضلت مسارها وبقيت وحدها متآكلة منسية،

و"عزيز" قُدِّر عليه الدوران.

إن لم تكن الهشاشة فينا لما تسكع شباب "حاموت" في الطرقات وبات يتعاطى المخدرات، تعويضا عن البطالة والفراغ.

لم تكن أرضي يوما خالية من همم شبابها ورجالها الأقوياء.. ولم تكن مسرحا للجريمة والمخدرات.

حينما تخلَّت الضمائر عن إنسانها، وتخلى الإنسان عن إنسانيته، صرنا أجسادا خاوية ينمو فينا الصرع فيتركنا نتضرج بزبَدنا أرضا، إرضاءً لأهوائنا وغواية المخترقين لأرضنا، كي تكون "حاموت" مسرحا لصراعاتهم الطائفية والعرقية.

لم تعد الشمس سامقة كعهدي بها، بل خفت نورها على الأرض وعلى الشباب العاطلين ومدمني المخدرات التي صُدرت إلينا من دول تدعي أنها حارسة للدين والعقيدة، وتوسعت أرصدة ذوي النفوذ بسرقة الأطفال وخنقهم بعد مساومة أهلهم، ثم دفنهم أحياء إن صعب الخنق وطمرهم ببرك الماء على يد جيل نرجو منه مستقبلا زاهرا.

كلما تعرضت للعلاج الكيمائي، كلما سقط عدد من أسناني وترك حفرا حمراء متقيحة.. وسقط شعري.. لم يعد جسدي النحيل قادرا على الإشعاع، حتى صارت حركتي محصورة على دخول الحمام والعودة إلى الفراش.

لكن " عزيز" بات يتهرب من لقائي، ولا يأتي كل ليلة لمسامرتي، وإن حضر يبقى صامتا ويشيح بوجهه عني إن بادرته بسؤال، أو استفسرت عُن أحواله وسبب غيابه المستمر.

وكلما حل وقت انتخاب الثيران لعروشهم، كلما زاد الدمار

والصراع.. لا حرمة لمراقد الأولياء ولا حرمة لأماكن مقدسة، تُزرع المفخخات بين هنا وهنا ليزيد الشك بين العقائد والصراع.

تُخترق المراقد رغم الحصانة والحماية والتدقيق والحراسة المشددة.. إلا أن عهر المفخخين أذكى من كل شيء، والضحية العزَّل، من نساء ورجال وأطفال.. لم تعد حرمة لدين أو عقيدة أو وطن.. بات الكرسي هو الوطن المفضل، وأصبح والوصول إليه بالقتل أمرا محللا دينيا ومحللا سياسيا، ومحللا وفق ضمائرهم العفنة.

"حاموت" ما أقول الآن وما عساي التحدث عنه؟ كلانا يذوي بالسرطان، وكلانا سيموت.. أرجوكِ إن متُ ابقي أنت خالدة، أنا الآن بين أنياب قاهر لا يرحم.. أحملك في أعماقي، رغم الريح التي تعصف بكِ.. وعليّ الاستعداد للرحيل.. سترحل صوركِ معي،لا تخافي.. ستسكن صورك معي وتحميني من العقاب.

تُري هل سأعاقَب في القبر؟ وهل في القبر عقاب وحساب فعلا؟

إن كان ذلك فلن تتحلل جثتي لأنكِ فيها حية باقية.. سنواصل التدفق معا ونتعامل مع التراب بشفافية مطلقة، فمن يحملك لا بد أن يكون شفَّافا نقيا.. سنتدفق ونقبِّل كل هائج وعاتٍ ونخلق في صدره السكون.. سنكون النور الضارب جذره في أعماقنا.. هكذا عرفتكِ يا "حاموت" وستبقين حبا جوهريا يصقل العتمة، كما لو أنك أجمل وأطعَم شهد في الكون.

ما يحصل لي على فراش ينتظر ساعة الوداع، يحصل لـ

"حاموت". لم يترك الظلاميون معبرا إلا ودنسوه، هؤلاء الرعاة جاءوا من حظائر فجواتهم الضيقة.. ليعلّموا الناس أن الدماء شاهد على أحقيتهم في السيادة.

مدّعون وخونة.. يدّعون بأنهم المخلِّصون.. هم مخصيون على الأرض.. عواصف كاسحة لرئات الشعب.. يظنون أنهم متفوقون وما تفوقهم إلا بالدعم الخارجي الخبيث مثلهم.. حقير يشد أزر حقير كي تتلوث الرئات، كما حصل لي.. سرطان يعبث بالعقول والنفوس.

تفننوا بالمنكر وطريقة استدراجه إلى أوكارهم.. أذهلني تفننهم، في القضاء على شعب"حاموت" فما عاد السير في الشارع، أي شارع مصدر أمان لقدم عابرة أو طفل ذاهب إلى مدرسته أو موظف إلى مكتبه، المكر مدّ يده إلى تراب الطرقات وسممه، لتصبح الأقدام على حين غرة بقايا جثث محروقة ودماء.

يسيرون بحثا عن قوت أو رزق، وليتهم يدركون أن الهواتف المرمية أرضا هي من أجل الحصاد الجماعي، حصاد لوليمة الخراب.

مدينتنا العظمى،لا تظفر إلا الفقد.. فقدنا فيها كل شيء.. حتى فكرة العاطفة،ولا يُسمح فيها جرس السلام.

تبلغ أنفي رائحة المجازر كلما قصدت المستشفى لأخذ جرعة علاج، وتحيل جسدي إلى ركام.. فما أرى غير الأبخرة المتصاعدة من الإثم.

"عزيز" امتهن الصمت وبات دخوله وخروجه مجرد حركة تخطف أمامي، ويد تناولني الدواء والماء.. حتى رجائي له

بالدخول إلى أي حديث يبدد ظلمتي ودقائق ألمي، بات خائبا،لا أدري هل للأشباح وقت للصمت ووقت للكلام، أليست مثلنا ثرثارة!!

أتلاعب معه بالألفاظ، أثير فيه الغيظ.. أستفزه.. أستبدل دقائق الصمت بأخرى،أتأوه، أتململ من الوضع، أذكر له أدق التفاصيل اليومية،ولا حراك في شفتيه، غير ابتسامة صفراء.

خرج ذات يوم ولم يعد.. قلقت كثيرا، فلا أحد يدخل علي ويواسي ألمي غيره.. الناس في "حاموت" مشغولون بهمومهم اليومية، حتى الجار بات غريبا على جاره.. لكنه عاد ليلا ومعه ثلاثة أشباح آخرين.. روَّضتُ صمتي وتمسكتُ به لئلا أخاف.. دنا مني "عزيز" مطمئنا ومسح على يدي، ثم قدمهم إلي.. لم يذكر لي أسماءهم، فقط ذكر اسمي لهم، فحيوا بإشارة وإيماءة رأس وصمت.

ما الذي يحدث، لا أدري، أشرت "لعزيز" ورجوته أن يخدم الضيوف عوضا عني، فلا قوة لي على ذلك.. أشار هو الآخر أن استقر وأهدأ، فلا حاجة للمجاملة، ولأعتبرهم أهل الدار.

ابتسمت في سري:- أهل داري صاروا أشباحا.. وظلالا أحيانا.

نعم ظلال، كثيرا ما يدخل ظلهم ولا يدخلون هم، باتوا يستأنسون في ذلك عن غياب "عزيز".. أسمع همسهم ولا أفهم لغتهم.

كلما غاب صديقي الشبح التصقوا بي وكأنهم يحرسونني أو يتحينون الفرص ليصبحوا أكثر التصاقا.. وكلما مسك أحدهم

عضوا من جسدي دب فيه الشلل، وازرق لونه... وكلما رجع عزيز ولاحظ الزرقة التي أتلفت تلك المساحة من جسدي، ازداد وجوما وعظم صمته، وبدا كأنه خارج للتو من صراع مؤلم.

أتعرض الليلة لضياع رهيب، وكأنني ما كنتُ إنسانا أو كائنا حيا.. إنسان تأذى ولم يؤذي أحدا قط في حياته، أحب الجميع، وعشق "حاموت" كما عشيقة عمره، إنسان لم يتزوج، نذر عمره لعشق أبدي، وضم قلبه إليه لئلا تشاركه أنثى فيه.. عشق "حاموت" استولى عليه.. من البذرة حتى لحظة شلل الأعضاء.

الليلة أنا مختلف عن كل الليالي، ربما لالتصاق أصدقاء "عزيز" بي ودنوهم الدائم مني.. أشعر كأنني مفرغ من يديّ وقدمَيّ.. وفي غمار التفريغ أسمع وأشعر بما يدور حولي.. لاحظت أن لساني بات ثقيلا، والذكريات تعبر مخيلتي، طفولتي،ويتمي، شبابي وشيبي، قوتي ومرضي،و"حاموت" تطوف في دمي وبرؤيتي كلها.. يمرق أمامي كل ما منحته لها وما منحته لي رحابها الخضراء.

أعمدة الضوء في الشارع، التي درست تحت ضوئها ليلا، وتفوقت بدراستي لأنها احتضنتني.. الأفكار السامية تصبح مزيجا من ألم وصراع مع الدقائق وثوانيها.. كل أخضر ظللني فيئه، واسترجعت المنطقة الخضراء الآن.. وما ذا تضم تحت ظلها، تظم القتلة والخونة وحارقي الشعب بأسره، تضم بائعي البلد وحارقيها عن بكرة أبيها.. تضم المتخاصمين المتناحرين، ويحي كيف يصبح الأخضر حظيرة.

شكرت " عزيز" وطلبه من رفاقه الاهتمام بي، خاصة أنني

أصبحت لا أقوم من السرير لقضاء حاجتي،لم أعد أشعر بحرارة الغائط تحتي، لكن رائحته تخترق أنفي.

قبل أن أنهي شكري له، سقطت دمعتان كبيرتان على خده وسالتا على رقبته.. لأول مرة أراه يبكي وبهذه الحرقة،أعرفه قويا صلدا كما جبل، فما الذي أبكاه، اعتذرت له:

- عذرا صديقي، أسحب كلامي إن كان سببا في بكاء من أحببته.

تطلع في وجه الأشباح الثلاثة وصمت مرة أخرى... صمته يذبحني، أشتاق لصوته، لمعاكساته معي ومزاحه، تعاليه علي ومداراتي.. أشتاق لصوته فعلا... لعنت الصمت ومَن أسسه في وجودنا حتى استفحل على الحياة بأسرها.

الصمت.. كم كرهته واحتقرته، وأحببته في نفس الوقت.. أحيانا أرافقه ويرافقني لأنه أبلغ من الكلام.. وأي كلام يفسر الاجتماعات الوزارية والرئاسية في "حاموت" الصغرى والكبرى.

يجتمع وزراؤنا ورؤساؤنا من أجل ابتكار الموت.. وليس من أجل اختراع عقار يقضي على السرطان.. من أجل الخضوع التام لأسيادهم، ليس للقضاء على الأمية والجريمة، وإنهاء النزاع.

يجتمعون كي يسب بعضهم بعضا ويغفو أغلبهم في الاجتماع، ثم يخرجون بحصيلة الشتيمة والفراغ.

(15)

كلما بصقتُ دما مع السعال الحاد، كلما لاحت لي "حاموت" التي تكدس فيها الفساد، والذين يتضورون جوعا، وأهل الفساد العابثين في خيراتها طمعا وجشعا.

لي الحق إن قلت أما آن لها أن تثور وتصرخ؟ ما الذي يجعلها صامته هكذا؟

فما الذي يستدعي هذا الصمت، بينما الأصوات المنكرة يُكال لها الثناء والاحتشام والتقدير.

الكل هنا يتحكم في الكل، والكبير يأكل الصغير، حياة حمقاء، هل علينا أن نعيشها، أوَ تستحق العيش فعلا؟

حُق علينا العيش مع الأخطار ومنادمة الخوف وكل أنماط الجحيم.

أجسادنا وليمة للموت.. ألا يحب الموت غير ملحها؟.. أيخاف الموت الظالم فيتواطأ معه علينا؟

يا ربي أكاد أجن وتصهرني التساؤلات، لم أعد أطيق مرضَين في آن واحد.. جسدي أصبح مجرد رخام بارد.. ولو كتمت ما أعانيه من احتقار لوجودنا وحقيقة "حاموت" الجديدة سأنفجر. لا بد أن أحرض "عزيز" وأتباعه، فالأخطار التي تهددنا كلها بسبب عبوديتهم.. ونحن خُلقنا أحرارا.. ما نحن إلا وسيلة لاستمرارية

عبودية أشباح، وهي منفعة متبادلة بينهم وبين "جليل"، بين العبد والسيد.

تتطاير الأخبار عن ولائم السادة والعبيد، مثل دخان الحرائق.. فنسمع عن خبر دم سُفح توا على الرصيف، هكذا تبدأ ترانيم أرض "حاموت" بعزفها وغنائها اليومي.. وإن لم تنهمر الدموع يوما، صال وجال " عزيز" وتململ وخاف.. وفي غمار مللله يتفتح قبر هائل لكارثة وفيضان.. ، لغرق سفن في البحر، لسقوط طائرة.. فيجلس ساعتها هادئ البال يسمع من خلال التلفاز ويمسح صدره زهوا لتساقط الأوراق من شجرة الحياة.

غضبت عليه ذات يوم وعلى صمته:

-هل نحن مجرد نُدبة في الحياة كما تظن؟

المدن والأنهار والبحار، القصور المشيدة والعمارات والأرض برمتها، كل هذا نُدبة في وجه الحياة وعليك استئصالها أيها الجرَّاح الأعظم؟

هز رأسه إيجابا وغضب، كدتُ أرى الشرر يتطاير من فمه، لكنه صمت ثانية، ربما أشفق على صديقه مما هو عليه.. أجل فقد تعلق بي لدرجة الصمت حيال مرضي.

جلس مستريحا قربي على الفراش.. وأخذ يتكلم بكل هدوء:

- أسأتَ الظن بي يا صديقي.. لقد فكرتُ كثيرا في نفسي المغصوبة، ورأيي المُغتَصب.. وقررت الهرب مرارا، لكن إلى أين! هنا المشكلة.. البحث عن الذات لا يحتاج الخنوع الكامل، بل تكرار محاولة الهرب.. أنت تعتقد بأنني شبح وماثل أمامك بهيئة إنسان.. لكن الاعتقاد ليس كما الحقيقة.. لم تجرب

الإحساس بالتناقص أمام مَن هم أعلى منك مرتبة وبيدهم قرارك ومصيرك.. إنه لغز.. نعم الحياة مجرد لغز وليس علي حله.

سحبتُ جسدي بوهن وبالكاد رفعت رأسي من الوسادة:

- بيد مَن حله إذاً؟

- بيد "جليل"

- هم رجعتَ "لجليل" ثانية؟

- نعم.. هو النتيجة العظمى التي تدور في فكرك الآن وسابقا، ومحور تساؤلاتك يدور حولها، هل أنا محق؟

- إذاً.. تعتبر الحقيقة في العبودية المُطلَقة؟ يا للهول.

- نعم.. هي مُطلقة، وعليك القبول.

أضحكني إصراره في البقاء على وضعه:

- بل قل المصلحة المتبادلة، بين القوي والأقوى منه.. هذه هي الحقيقة التي توصلت إليها الآن.. بقدر ما تعطيني أعطيك، وبالكيفية التي تُبقيني فيها أبقيك.. إنما حين أصاب بالتخمة أرمي إليك الفضلات، أقضي عليك وأبقى وحدي سيد المكان المُطلق... ثم ألفضك من بطني ثانية لأعيدك عبدا وأغريك بحياة هانئة ومستقرة.. أقتنع الأتباع والمقربون بيوم الراحة الكبرى.

- أتدري يا "عزيز".. هؤلاء الأتباع ما هم إلا قوم عجزة لا يحبون العمل والجد، ويسيرون خلف أهوائهم الجنسية وأعضائهم الشبقة، استحلوا يوما لا عمل فيه، يأكلون وينامون ويعاشرون ويشربون.. إذاً هو مجتمع عاطل وشبق فاسد.

نحن أبناء الزنا الكوني.. ألسنا من أب وأم إخوة؟ كيف تكاثرنا وأصبحنا أقواما؟... نحن أقوام الزنا الأول، ثم نحرمه ونجعله من الموبقات الكبرى، لنحلله في آخر المطاف.

نُرجع إلينا الحق الذي نتمناه واغتـُصب منا.. ومَن حرموه علينا سيكونون في أعلى درجات المجتمع العاطل.. ويمارسون كل ما حرموه وحُرموا منه.

ربما لم يحرموا منه، بل مارسوه في الخفاء لئلا يقضي على نفوذهم وسيطرتهم علينا.. وأكثر القوانين التي سنوها كانت من مصلحة شخصية تصب أولا وأخيرا لصالحهم.. وما توصلتُ إليه هو الحقيقة بعيها.. وحتى في المجتمع العاطل سيكونون في عليِّين.. يعني سنبقى المرتبة الثانية أو الثالثة.. وربما الأدنى.

أصدقاء "عزيز" لم يتجسدوا لي بشرا مثله بقوا أشباحا تدور في غرفتي، تقترب وتلتصق.. ينصتون لأحاديثنا.. ولا يأتون بأية إشارة.

دب في جسدي ثلج غريب اليوم.. وضع أحد الأشباح كفة على جبيني حين صرخت متألما.. دنا منه شبح آخر وهمس، لم استطع التقاط كلمة من همسهما.. لكن جبيني أثلجت هي الأخرى.. ثم مسح الشبح الثالث عل صدري.. فتخلله الجليد.. شيء غريب اليوم يسبح في صدري.. أشعر كأنني شخص يريد الضياع من نفسه.. تراخت أجفاني هي الأخرى استجابة لليد الثالثة التي مسحت عينيَّ.. و"عزيز" يقف موقف المتفرج.

جاهدتُ كي أفتح الأجفان من التصاقها.. التقت عيناني بعيني "عزيز"، ونحيبه الخفوت.. لكن الريح أقبلت من النافذة، مسح

عينيه الدامعتين ومد يده إلى النافذة كأنه يوقف الريح عند حدها.. إنما ارتعش بدني كله.. هزة الريح اخترقت يد صاحبي ودخلت من نافذة أخرى.. واستقرت على صدري.. والأشباح يمررون أكفهم هنا وهناك.. على بدن نحيل أعزل.. حاصرني الأشباح الثلاثة كأنهم صاروا موجا يسبح بي ويعتو.. ، و"عزيز" يدير ظهره إليهم خشية رؤية عتوهم القابض على أنفاسي.

خرجتُ من السيطرة عن كل ما يخصني.. ويتبع لإشاراتي.. فاستكبر الأشباح وعتوا أكثر من ذي قبل.. في غمار صراعهم واستسلامي غفوت.

ساعتها حلمت بأنني مرفوع على يدَيْ "عزيز" عاليا، والهواء يتخلل ملابسي البيضاء، وشعري وبدني.. ذراعاه ممدودتان للريح، وأنا لا أدري أين أنا.. وأين رفاقه الأشباح، هل بقوا في داري أم سيلتحقون بنا حيث يأخذني صاحبي.

همس لي "عزيز" أن أتنفس بعمق.. قبل الخضوع إليه نظرت إلى "حاموت" من بعيد فرأيتها مدخنة متصاعدة.. تنفستُ عميقا واستسلمتُ لصاحبي المسرور باستسلامي التام.. وأنا أردد في نفسي:

- أصبحتُ عبدا.. أصبحتَ عبدا يا "محمد" أصبحت عبدا للقوي... أصبحتَ عبدا.

وفاء عبد الرزاق

- مواليد العراق – البصرة.
- المملكة المتحدة – لندن.
- شاعرة وقاصة وروائية.
- مستشار رابطة إبداع العالم العربي والمهجر في المملكة المتحدة.
- تناول منجزها الأدبي من قبل نقاد كثيرين عبر دراسات وقراءات نقدية منشورة في مختلف الصحف والمجلات الورقية والالكترونية، كان آخرها كتاب المتخيل التعبير للدكتور نادر عبد الخالق.
- نالت أعمالها الشعرية والقصصية والروائية العديد من الدراسات وشهادات التخرج وأطاريح الدكتوراه والماجستير.
- حازت على تكريم من جمعية المترجمين واللغويين المصريين مع عضوية شرف في حفل تم برعاية الدكتور حسام الدين مصطفى رئيس الجمعية.
- حازت على تكريم وعضوية شرف من النادي الأهلي، البحرين.
- رُشحت سفيرة للنوايا الحسنة من قبل المؤسسات الثقافية المدنية غير الحكومية ونخبة من المثقفين والمبدعين الملتزمين بقضايا الإنسان والإبداع.
- تم تكريمها من قبل العديد من المؤسسات الثقافية العالمية والعربية والعراقية.
- حازت على المرتبة الأولى لجائزة نازك الملائكة للقصة القصيرة جدا 2012 العراق.
- تم تكريمها من قبل جامعة ابن زهر، أغادير، المغرب، 2012.
- تم تكريمها من جامعة واسط العراق، 2012..

- تم اختيار ديوانها: مدخل إلى الضوء ضمن المناهج الدراسية لكلية الآداب، جامعة ابن زهر، المغرب،من قبل الدكتور عبد السلام فزازي بعد تقديمه للديوان 2012.
- تم اختيارها سفيرة للسلام من قبل مؤسسة المثقف العربي لعام 2012.
- فازت بجائزة الإبداع عن مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا لعام 2011 عن منجزها الأدبي.
- تم تكريمها من قبل جامعة زايد، أبو طبي، الإمارات العربية المتحدة، 2011.
- أصدرت لها مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، كتاب تكريم، 2011.
- حازت على تكريم من وزارة الثقافة العراقية 2011.
- حازت على شهادة تقدير من مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، 2010.
- تم تكريمها من قبل مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، 2010.
- فازت بجائزة نازك الملائكة عن قصيدة بيت الطين 2010.
- حازت على ميدالية اتحاد الكتاب المصري شعبة الطفل، الإسكندرية، مصر، 2010.
- حازت على تكريم من جريدة جريدتي للأطفال القاهرة، 2010.
- حازت روايتها أقصى الجنون الفراغ يهذي بنيل شهادة التخرج من جامعة تبسة الجزائر 2013.
- حازت مجاميعها الشعرية بنيل شهادة الماجستير من جامعة واسط العراق 2013.
- حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب" على أن يكون موضوعاً لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي بجامعة تبسة الجزائر 2009.
- حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب" بعد ترجمته إلى اللغة

الفرنسية "دار لارمتان" فرنسا في مشروعها السنوي "من القارات الخمس" على أن يكون ضمن من يمثل قارة آسيا تحت إشراف البروفسور "فيليب تانسولان".

- حاز ديوان "أمنحُني نفسي والخارطة" على أن يكون أطروحة تخرج من جامعة ابن زهر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أغادير، المغرب، 2009-2010.
- حازت على الجائزة الأولى بمسابقة القصة القصيرة "مؤسسة أور الثقافية الحرة" العراق عن قصتها "أربع أقدام وسطح" 2009.
- حازت على الجائزة الذهبية - الملتقى الثقافي العربي مصر عن قصتها "الجثث تشرب العصير" 2009.
- حازت على الجائزة الثالثة - اتحاد الأدباء العراقي النجف مسابقة القصة القصيرة عن قصتها "عقابٌ أم ثواب" 2009.
- حازت على جائزة المتروولیت نقولاوس نعمان للفضائل الإنسانيَّة لبنان 2008 عن مخطوطها المعنون (من مذكرات طفل الحرب).
- حازت على جائزة (قلادة العنقاء الذهبية للإبداع) عن (مهرجان العنقاء الذهبية الدولي) العراق لعام 2008.
- حازت على وسام الوفاء (نادي ثقافة الأطفال الأيتام) من (النخلة البيضاء) 2008 العراق.
- حازت على تكريم من الديوان الثقافي العراقي - لندن 2008.
- حازت على تكريم من مؤسسة النور الثقافية - العراق - السويد 2008.

صدر لها

أ - إصدار صوتي:

عدد 6 CD شعر، إلقاء وموسيقى شعر شعبي.

ب - الشعر الفصيح:

1 - هذا المساءُ لا يعرفني، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، 1999.

2 - حين يكون المفتاحُ أعمى، مؤسسة الانتشار العربي،لبنان، 1999.
3 - للمرايا شمسٌ مبلولة الأهداب، دار الكندي،الأردن، 2000.
4 - نافذة فلتت من جدران البيت، منشورات بابل -، العراق، 2006.
5 - من مذكرات طفل الحرب، دار نعمان للثقافة، لبنان، 2008.
6 - حكاية منغولية، دار نعمان للثقافة، لبنان، 2008.
7 - من مذكرات طفل الحرب باللغة الفرنسية، دار لارمتان، فرنسا
8 - أمنحُني نفسي والخارطة، دار كلمة، مصر، 2009.
9 - طبعة ثانية، من مذكرات طفل الحرب، دار كلمة، مصر، 2009.
10 - البيتُ يمشي حافيا، دار كلمة، مصر، 2010.
11 - من مذكرات طفل الحرب، طبعة ثالثة، مصر، 2010 .
12 - حكاية منغولية،طبعة ثانية،دار كلمة، مصر، 2010.
13 - من مذكرات طفل الحرب باللغة الأسبانية المغرب، 2010.
14 - أدخل جسدي أدخلكم، مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، ودار العارف بيروت - لبنان، 2012.
15 - مدخل الى الضوء، مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا، ودار العارف بيروت - لبنان، 2012.

ج - الشعر الشعبي:

1 - أنا وشويَّة مطر، دار الكندي، الأردن، 1999.
2 - وقوَّسَتْ ظهر البحر، دار الكندي، الأردن، 1999.
3 - مزامير الجنوب، دار الموسوي، أبو ظبي، 1996.
4 - تبللت كلي بضواك، دار كلمة، مصر، 2010.
5 - عبد الله نبتة لم تُقرأ في حقل الله، دار كلمة مصر، 2010.
6 - بالقلب غصّة، غضة أولى، دار كلمة مصر، 2010.
7 - بالقلب غصَّة، غصَّة ثانية، دار كلمة، مصر، 2010.
8 - حزن الجوري. . ضمن المجموعة الكاملة بالقلب غصة،غصة أولى 2010 دار كلمة مصر.

د - الروايات:

1 - بيتٌ في مدينة الانتظار، دار الكندي، الأردن، 2001.

2 - تفاصيل لا تُسعف الذاكرة، دار الكندي،الأردن 2000. (رواية شعرية).

3 - السماء تعود إلى أهلها، دار كلمة، مصر، 2010.

4 - أقصى الجنون الفراغ يهذي، دار كلمة، مصر، 2010.

5 - الزمن المستحيل، مؤسسة المثقف، سيدني - استراليا ودار العارف، بيروت - لبنان 2014.

6 - حاموت، مؤسسة المثقف، سيدني - استراليا ودار العارف، بيروت - لبنان 2014.

هـ - مجاميع قصصية:

1 - إذن الليلُ بخير، دار الكندي، الأردن، 2000.

2 - امرأةٌ بزيّ جسد، دار كلمة،مصر، 2009 .

3 - نقط، دار كلمة، مصر، 2010.

4 - بعضٌ من لياليها، دار كلمة مصر، 2010.

5 - امرأة بزي جسد في اللغة الفرنسية المغرب 2010. (مطبعة أنفو برانت.

6 - في غياب الجواب، دار العارف 2013.

7 - أغلالٌ أخرى، قصص قصيرة جداً، دار العارف 2013.

8 - وجوه أشباح أخيلة، قصص شعرية، دار العارف 2013.

مجموعة قصصية قيد الطبع:

1 - بقعة ارتجاف حرة (مشروع قصصي شعري فني مشترك، الكاتبة سعاد الجزائري قصص قصيرة، وفاء عبد الرزاق شعر،الفنانة عفيفة لعيبي رسم. فكرة العمل محاكاة المجموعة القصصية للكاتبة سعاد الجزائري شعريا وفنيا، ويشمل الكتاب لكل قصة قصيدة ولوحة).

مخطوطات:

أ - **قصص:**

1 - الآخرون، قصص قصيرة.

2 - وفائيَّات، بوح حر.

ب - **الشعر الشعبي:**

1 - ترنيمة الفراشات.

2 - نایاتٌ لها شكلي.

3 - انتماءات لوجع المطر.

4 - براويز.

الترجمات:

1 - تُرجمتْ بعض الأعمال إلى اللغة الانجليزية والفارسية والفرنسية والايطالية والتركية واللغة الكردية.

2 - تُرجمت بعض الأعمال الشعرية إلى اللغة الفرنسية في موسوعة السلام العالمي للإبداع.

3 - تُرجمت بعض أشعار (من مذكرات طفل الحرب) إلى اللغة التركية ضمن موسوعة السلام للطفل.

4 - ترجم ديوان (من مذكرات طفل الحرب) إلى:

أ - اللغة الانكليزية، ترجمة الشاعر يوسف شغري، سوريا.

ب - اللغة الفرنسية، ترجمة السيدة هادية دريدي - فرنسا.

ج - اللغة الأسبانية، ترجمة السيدة ميساء بونو، المغرب.

د - اللغة الايطالية، ترجمة الأستاذ أحمد التميمي، إيطاليا.

5 - تُرجمت المجموعة القصصية "امرأة بزي جسد" على اللغة الفرنسية، ترجمها الأديب محمد نصرافي، المغرب، 2010.

المساهمات:

1 - نشرت في العديد من الصحف والمجلات العربية.

2 - ساهمت في العديد من المهرجانات الشعرية والأمسيات الثقافية عربياً وعالمياً.

3 - شاركت في مهرجان السلام العالمي للشعر، فرنسا.

4 - قامت بعدة نشاطات كسفيرة للسلام عن مؤسسة المثقف العربي، سيدني - استراليا.

مؤسسة المثقف العربي

❖

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في **05/ 01/ 2010**م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وإيجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات اخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، ترفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الإنقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الانسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسية المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج استراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- ❖ نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ❖ ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- ❖ نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان.
- ❖ نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- ❖ نرفض الخطاب الطائفي والأيديولودي المحرض.

❖ نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.

❖ نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث والتحديات، ونعرف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

إصدارات مؤسسة المثقف العربي:

- تجليات الحنين.. في تكريم الشاعر يحيى السماوي.
- الضد النوعي للاستبداد.
- استفهامات حول جدوى المشروع السياسي الديني... ماجد الغرباوي.
- امرأة بين حضارتين... حوار مفتوح مع ا. د. إنعام الهاشمي.
- د.عبد الرضا عليّ.. رحلةٌ متوهّجةٌ في فضاءِ النقدِ والدرسِ الأكاديمي.
- جذِلاً.. بينَ سِربِ السنونو.. سعد الحجّي.
- وفاء عبد الرزاق.. افق بين التكثيف والتجريب.
- شوكت الربيعي.. فضاء ابداعي متوهج.
- مدارات ايديولوجية.. حوار مفتوح مع الاستاذ سلام كاظم فرج.
- الشيخ محمد حسين النائي.. منظّر الحركة الدستورية.. ماجد الغرباوي.
- أيلولٍ وضوء القمر.. د. هناء القاضي.
- أدخلُ جسدي أدخلُكم.. وفاء عبد الرزاق.
- غرّيد القصب... سنية عبد عون رشو.
- تعالي لأبحثَ فيك عنّي.. يحيى السماوي.
- مدخل الى الضوء.. وفاء عبد الرزاق.
- المتخيل التعبيرى.. د. نادر أحمدعبد الخالق.
- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الاسلامي.. د. عبد الجبار الرفاعي.
- ترنيمتان لمنقى واحد.. سوزان سامي جميل وأفين ابراهيم.

- مطارحات حول الحجاب والزينة في الشرع الإسلامي.. غالب حسن الشابندر.
- (مسرحية) رحلة ابن عوف الى بلاد الخوف.. محمد تقي جمال الدين.
- العُمْرَان البشري الإسلامي.. دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.. د. رشيد كُهُوسْ.
- الأم والطفل والتغذية.. ترجمة: علي اسماعيل حمه جاف.
- في غياب الجواب.. وفاء عبد الرزاق.
- أغلال أخرى.. وفاء عبد الرزاق.
- أشباح وأخيلة.. وفاء عبد الرزاق.
- إدمان السياسة.. جورج كتن
- الزمن المستحيل.. وفاء عبد الرزاق
- حاموت.. وفاء عبد الرزاق

AAA - Sydney - Australia
Almothaqaf Arabic Association
مؤسسة المثقف العربي 2010

www.almothaqaf.com
almothaqaf@almothaqaf.com